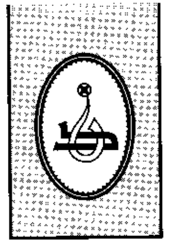
العروبة والإسلام



أ.د. أسعد السحمراني

دار النفائس



العروبة والإسلام

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾ [الشعراء/ ١٩٣ - ١٩٥]

العروبة والإسلام

تأليف

أ. د. أسعد السحمراني

(أستاذ العقائد والأديان في جامعة الإمام الأوزاعي ـ بيروت)

دار النفائس

العروبة والإسلام
تأليف: أ.د. أسعد السحمراني

الطبعة الأولى: ١٤٣٤هـ/٢٠١٣م
ISBN: 978 - 9953 - 18 - 522 - 4

publisher | **نشر**


DAR AN-NAFAES
Printing-Publishing-distribution
Verdun Str - Safiedine bldg.
P.o.Box 14-5152
Zip code 1105-2020
Fax: 009611 861367
Tel: 00961 1 803152 - 810194
Beirut - Lebanon


دار النفائس
للطباعة والنشر والتوزيع
شارع فردان - بناية الصباح
وصفي الدين - ص.ب 5152 - 14
الرمز البريدي: 2020 - 1105
فاكس: 009611861367
هاتف: 803152 - 009611810194
بيروت - لبنان

Email: alnafaes@yahoo.com
Web Site: www.alnafaes.com

الإهداء

إلى العاملين لوحدة الأمَّة ووأد الفتن،

إلى المخلصين الرّافضين للشرق أوسطية؛

أهدي عملي هذا...

أسعد السحمراني

المقدّمة

يعيش الإنسان العربي حالاً من القلق، حيث تنتشر الفتن متَّخذة شكل التعصُّب، والتقوقع داخل كيانات فئوية، وهذه التعصّبات التي أُريقت دماءٌ من أجلها، وحصلت معها تعدِّيات ولَّدت حالات من عدم الاستقرار، وكانت تتذرَّع بالانتماء الطائفي، أو المذهبي، أو العرقي، أو الجِهوي، وكل هذا يأتي في إطار مواصلة خدمة المشروع الاستعماري الذي اعتمد قاعدة: فرِّق تسد.

لقد زرع الاستعمار غدَّة «مسرطنة» هي الاغتصاب الصهيوني لفلسطين؛ كي يشكِّل الكيان الاستيطاني الإحلالي حاجزاً بين شطري الأمَّة العربية الإفريقي والآسيوي، وكان بعد ذلك المشروع الصهيوأمريكي المسمَّى: الشرق الأوسط الجديد، الذي يسعون من خلاله لضرب هويَّة الأمة ووحدتها واستقرارها.

أما في ساحة الأمة فقد برز تياران: تيار طرح العروبة بمضمون لا ديني Laïque (علماني) متأثراً بالفكر الغربي الوافد، وهذا الطرح يناقض الحقيقة؛ لأن أرض العرب مهد رسالات السَّماء الخالدة، ولأن الإسلام خاتم الرسالات السماوية كان العامل الحاسم في بلورة شخصية الأمة العربية الممتدة من المحيط إلى الخليج. وتيار طرح فكراً سياسياً يخاصم العروبة باسم الإسلام، وهذا الفكر كان نتاج

عقلية انسلاخية تدعو لمعاداة القومية، علماً أن القومية رابطة اجتماعية وحضارية، أما الدين فإنه رابطة عقَديَّة بين أتباعه.

والعروبة ليست رابطة عرقية في مفهومنا، ولا هي وحدة اجتماعية حضارية موصدة الأبواب على من في داخلها، وإنما العروبة الحضارية الجامعة منفتحة تقبل كل من أراد أن يستعرب.

هذا الكتاب محاولة تضاف إلى كتابات ودراسات سبقت هذا التاريخ، وعملت على مناقشة العلاقة البنيوية بين العروبة والإسلام، وإنَّ هذا الكتاب لا يطرح نفسه بديلاً نظرياً، ولا يدَّعي أنه إبداعٌ لجديد، وإنما هو عرض غير منفعل يطالب القرّاء أن يتعاملوا معه بحكمة، وبتفكير رشيد، كي تكون الجهود موظَّفة في سبيل نهضة الأمة.

كاتب هذه السطور يأمل أن يكون قد وفِّق في تقديم ما هو مفيد للقرّاء، وما هو في خانة الدفاع عن الوحدة، ومقاومة الفتنة، والرجاء لله تعالى قَبول ما هو مقدَّم، وهو سبحانه الولي النصير.

عكار ـ لبنان الشمالي
في ٢/٥/٢٠١٣
أسعد السحمراني

الفصل الأول

العرب أقدم الأمم

الواقع الجغرافي

يقع الوطن العربي بين الخليج العربي وبحر العرب شرقاً والمحيط الأطلسي غرباً، وبين جبال طوروس شمالاً والمنطقة الاستوائية جنوباً، ومساحته هي: / ١٤,٢٩١,٤٦٩/ كيلومتراً مربعاً، وهذه المساحة تعادل ١٠,٢ بالمئة من مجمل مساحة اليابسة في العالم.

ويشكِّل الوطن العربي موقعاً متميِّزاً في الاستراتيجيا الجغرافية، أو ما يسمَّى Géo-politique (الجغرافيا السياسية)، ويستمد ذلك من كونه يمتدُّ في قارتي إفريقيا وآسيا، ويجاور أوروبا؛ وهذه هي قارات العالم القديم. يضاف إلى ذلك شواطئه الطويلة الممتدة على البحر الأحمر، والبحر الأبيض المتوسط، والمحيط الأطلسي، والمحيط الهندي من خلال الخليج العربي وبحر العرب.

وتنبع أهمية الموقع من كونه يحتضن: قناة السويس التي تخترق أرض مصر، ومضيق باب المندب الواقع بين اليمن وجيبوتي، ومضيق تيران الواقع بين مصر والسعودية، ومضيق هرمز الذي تطلُّ عليه كل من سلطنة عُمان وإيران، ومضيق جبل طارق الواقع بين المغرب وإسبانيا وبريطانيا.

إن الأرض العربية تشمل أنواعاً من التربة والتضاريس، منها الجبلي أو الساحلي الخصب، ومنها الصحراوي، ويتنوَّع المناخ والتربة بحيث يساعد ذلك على توافر الإمكانات والتخطيط السليم لتحقيق الأمن الغذائي، هذا غير الثروة الحيوانية الكبيرة القابلة للتنمية، ففي السودان مثلاً تبلغ الثروة الحيوانية ١٣٠ مليون رأس من الماشية، وفي بلد قليل السكان كموريتانيا تزيد الثروة الحيوانية عن ٧ ملايين رأس من الماشية، هذا بالإضافة إلى الثروة السمكية الضخمة، فبلدٌ مثل موريتانيا يبلغ شاطئه على الأطلسي ٦٦٠ كيلومتراً، والشاطئ الليبي على البحر المتوسط حوالي ١٨٠٠ كيلومتراً، ومصر تبلغ شواطئها البحرية ٣٠٠٠ كيلومتراً، منها أكثر من الثلث بقليل على المتوسط (١١٥٠ كلم) والباقي على البحر الأحمر.

وبالإضافة لما ذكرنا، فقد تميَّزت الأرض العربية بثرواتها الباطنية، حيث تحتوي على ٦٠٪ من الاحتياط النفطي العالمي ومعه الغاز الطبيعي، وما تحويه التربة العربية من معادن منها الحديد والنحاس والذهب وسواها، والأنهار والمياه، وأبرزها نهر النيل ومجراه في مصر والسودان، زِدْ على ذلك المخزون الضخم من الآثار التي يقلُّ نظيرها، والتي تشكل شاهداً تاريخياً على العراقة الحضارية، ويأتي على رأس القائمة الأماكن المقدسة الإسلامية والمسيحية، فإن كل مسلم أو مسيحي في وجدانه طموح، هو الحجُّ إلى مقدَّساته التي تحضنها الأرض العربية.

وهناك إجماع عند العلماء مفاده أن أرض العرب كانت موطن الإنسان منذ عشرات ألوف السنين.

من هم العرب في المصطلح اللغوي والسلالي؟

العرب عند أبي نصر إسماعيل بن حمّاد الجوهري (ت ٣٩٣ هـ) في (الصحاح):

«جيل من الناس، والنسبة إليهم: عربيٌّ بيِّن العروبة، وهم أهل الأمصار، والأعراب منهم سكان البادية خاصَّة. وجاء في الشعر الفصيح: الأعاريب. والنسبة إلى الأعراب أعرابي، لأنه لا واحد له، وليس الأعراب جمعاً لعرب، كما كان الأنباط جمعاً لنبط، وإنما العرب اسم جنس.

والعرب العاربة هم: الخُلَّص منهم، وأُخذ من لفظه فأُكِّد به.... وتعرَّب؛ أي: تشبَّه بالعرب. وتعرَّب بعد هجرته؛ أي: صار أعرابيًّا.

والعرب المستعربة هم: الذين ليسوا بخلَّص، وكذلك المتعرِّبة.

والعربية، هي هذه اللُّغة. ويَعْرُب بن قحطان أول من تكلَّم بالعربية، وهو أبو اليمن كلّهم. والعَرَب والعُرْب واحد،... وعَرُب لسانه: بالضم عروبة؛ أي صار عربيًّا. وأعرب كلامه، إذا لم يلحن في الإعراب. وأعرب بحجَّته، أي: أفصح بها ولم يتَّقِ أحداً»[1].

وقد عرض ابن منظور (ت ٧١٠ هـ) في (لسان العرب) ما هو قريب من هذا المعنى، وظاهرٌ أنه قد استفاد من (الصحاح) فقال:

«العرب: جيل من الناس معروف، خلاف العجم.... الجوهري:

(١) الجوهري، أبو نصر إسماعيل بن حمّاد، الصحاح (تاج اللغة وصحاح العربية)، ج ١، تحقيق د. إميل بديع يعقوب ود. محمد نبيل طريفي، بيروت، دار الكتب العلمية، ط ١، سنة ١٤٢٠هـ ـ ١٩٩٩م، ص ٢٦٩، ٢٧٠.

العُريب تصغيـر العرب.... والعرب العاربة: هـم الخلَّص منهم، وأُخذ مـن لفظـه فأكَّد بـه، كقولـك: ليلٌ لائـل. تقول: عـرب عاربـة وعرباء: صرحاء. ومتعرِّبة ومستعربة: دخلاء، ليسـوا بخلَّص. والعربي منسوب إلى العرب، وإن لم يكن بدوياً.

والأعرابي: البـدوي؛ وهم الأعراب، والأعاريـب، جمع الأعراب. وجـاء فـي الشـعر الفصيـح، الأعاريـب، وقيل: ليـس الأعـراب جمعاً لعرب، كما كان الأنباط جمعاً لنبط، وإنما العرب اسم جنس»[1].

ويكمل (ابـن منظور) مميِّزاً بين عربي وأعرابـي (بدوي) ومبيِّناً قِدم وجود العرب في التاريخ، فيقول: «والنسب إلى الأعراب: أعرابي، قال سـيبويه: إنمـا قيل في النسـب إلى الأعـراب أعرابي، لأنـه لا واحد له على هذا المعنى.... وعربي بيِّن العروبة والعروبية، وهما من المصادر التـي لا أفعال لهـا. وحكى الأزهـري: رجل عربـي، إذا كان نسـبه في العرب ثابتـاً، وإن لم يكن فصيحاً، وجمعه: العـرب.... ورجل معرب إذا كان فصيحاً، وإن كان عجمي النسب.

ورجل أعرابي، بالألف، إذا كان بدوياً، صاحب نجعةٍ[2] وانتواءٍ[3] وارتياد للـكلأ، وتتبـع لمسـاقط الغيـث، وسـواء كان مـن العـرب أو مـن مواليهم. ويجمع الأعرابي على الأعراب والأعاريب. والأعرابي إذا قيل له: يا عربي، فرح بذلك وهشَّ له. والعربي إذا قيل له: يا أعرابي، غضب له.

---

(١) ابن منظور، لسـان العرب، م٤، تحقيق عبد الله علي الكبير وآخرين، القاهرة، دار المعارف، بدون تاريخ، ص٢٨٦٣.

(٢) نجعة: طلب الكلأ ومساقط الغيث (الواحات).

(٣) انتواء: انتقال من مكان لآخر. أو ترحُل مع مشقَة.

فمـن نـزل الباديـة، أو جـاور الباديـن وظعـن[1] بظعنهـم، وانتـوى بانتوائهم؛ فهم أعراب. ومن نزل بلاد الريف واستوطن المدن والقرى العربية وغيرها ممـن ينتمي إلى العرب؛ فهم عـرب.... قال الأزهري: والـذي لا يُفـرِّق بيـن العـرب والأعـراب، والعربـي والأعرابـي، ربما تحامل على العرب....

واختلـف الناس في العرب لِمَ سُـمّوا عرباً، فقـال بعضهـم: أول من أنطق الله (تعالـى) العروبة لسـانَه بلغة العرب يعرب بـن قحطان، وهو أبو اليمن كلّهم، وهم العرب العاربة، ونشأ إسماعيل بن إبراهيم عليه السلام، معهم فتكلَّم بلسانهم، فهو وأولاده: العرب المستعربة....

وروي عـن النبـي ﷺ، أنـه قال: «خمسـة أنبيـاء من العـرب، وهم محمَّد، وإسـماعيل، وشـعيب، وصالح، وهـود» صلـوات الله (تعالى) عليهم. وهـذا يدل على أنَّ لسـان العرب قديم. وهـؤلاء الأنبياء كلّهم كانوا يسكنون بلاد العرب»[2].

العـرب من أقدم الشـعوب، ولغتهم قديمة العهـد، وهم في الأصل بـدو وحَضَر؛ فمـن كان منهم بدويـاً سـمّوه أعرابياً، وهـؤلاء الذين ذمَّ النصُّ القرآني بعضهم؛ لأن قبيلاً منهم تظاهروا بالإسلام، وهـم ما قالوا ذلك إلا لمصلحة خاصة، ومن كان حَضَرياً سمُّوه عربياً، ومن لم يكن عربـي الأصل، ولكنه عـاش بين العرب وتعرَّب أو اسـتعرب يكون قد أصبـح عربيـاً. وهذا يلفـت إلى مسـألةٍ هي: أن العـرب منـذ القِدم لم يعتمدوا السـلالة والعِرق مرتكـزاً للانتماء إلى العروبة، بل اللسـان هو

---

(١) ظعن: ترحَّل كالبدو.

(٢) ابن منظور، م. س، ص ٢٨٦٤.

الأساس في تحديد الانتماء، ولهذا كان عندهم العرب الخُلَّص أو العاربة، والعرب المتعرِّبة أو المستعربة.

وقد توالى القول عند الباحثين بتكرار المعاني نفسها، من هؤلاء صاحب معجم (تاج العروس من جواهر القاموس) السيد محمد مرتضى بن محمد الحسيني الزبيدي (ت ١٢٠٥ هـ) الذي قال: «عرب: العُرْب بالضم: جيل من الناس معروف خلاف العجم... وهم سكان الأمصار أو عامٌّ، كما في التهذيب، والأعراب منهم؛ أي بالفتح، هم سكان البادية خاصَّة، والنسبة إليه أعرابي؛ لأنه لا واحد له كما في الصحاح، وهو نصُّ كلام سيبويه، والأعرابي: البدوي، وهم الأعراب ويجمع على أعاريب، وقد جاء في الشعر الفصيح، وقيل: ليس الأعراب جمعاً لعرب كما كان الأنباط جمعاً لنبط، وإنما العرب اسم جنس.... قال أبو الخطاب ابن دحية المعروف بذي النسبين: العرب أقسام:

الأول: عاربة وعرباء، وهم الخُلَّص، وهم تسع قبائل... هي: عاد وثمود وأُميم وعبيل وطسم وجديس وعِمليق وجُرْهم ووبار، ومنهم تعلَّم إسماعيل عليه السلام العربية.

والقسم الثاني: المتعرِّبة، وهم بنو اسماعيل، ولد معد بن عدنان بن أدد»[1].

العرب قوم اتَّصفوا بالبلاغة، وهم شعب عريق في القِدم؛ لأن

---

(١) الزبيدي، السيد محمد مرتضى بن محمد الحسيني، تاج العروس من جواهر القاموس، م ٢، ج ٣، بيروت، دار الكتب العلمية، ط ٢، سنة ١٤٣٣هـ ـ ٢٠١٢م، ص٢٠٨، ٢٠٩.

علمـاء الجغرافيا توصَّلوا إلى تقرير حقيقة هي: أن الأرض العربية وفي قلبها الجزيرة العربية كانت ملائمة لسكنى البشر بسبب اعتدال مناخها، وتوافر المـاء والخصـب، ولا تحديد لذلـك بدقة، إنما مـا قيل هو أن ذلك كان قبـل تاريخ العـام أربعين ألفاً قبـل الميلاد؛ أي فـي العصور الجليديـة. وتـردد الوثائـق أن قبائل العرب انتشـرت فـي أرض الوطن العربي بعد الطوفان الذي كان في زمن النبي نوح عليه السلام.

يقول السـيد محمود شـكري الألوسـي (ت ١٣٤٢ هـ) محدِّداً العرب: «العرب جيل من الناس لم يزالوا موسـومين بيـن الأمم بالبيان في الكلام، والفصاحة في المنطق، والذلاقة (الفصاحة) في اللسان، ولذلك سُمُّوا بهذا الاسـم، فإنه مشـتقٌ من الإبانة، لقولهم: أعرب الرجل عمَّا في ضميره؛ إذا أبـان عنه.... والبيان سِـمَتُهم بيـن الأمم. وهم أمـة قديمة، فقـد كانوا بعد الطوفان وعصر نوح عليه السلام في عاد الأولى وثمود والعمالقة وطسم وجديس وأُميم وجرهم وحضرمـوت ومن ينتمي إليهم من العرب العاربة... ثم لما انقرضت تلك العصور وذهب أولئك الأمم وأبادهم الله تعالى بما شاء من قدرته، وصار هـذا الجيل في آخرين ممن قرب نسـبهم من حمير وكهلان وأعقابهم من التابعة ومن إليهم من العرب المستعربة»[١].

وقـد عرض الألوسـي عناصـر للمكونات الشـخصية تجيـز إطلاق العربي على من توافرت فيه السِّمات وفق ما حدَّده. قال الألوسي: «إن لفظ العرب في الأصل اسم لقوم جمعوا عدَّة أوصاف:

---

(١) الألوسـي، محمود شـكري، بلوغ الأرب من معرفـة أحوال العرب، م١، شـرحه وضبطـه محمد بهجة الأثـري، بيـروت، دار الكتب العلمية، ط١، سـنة ٢٠٠٩م، ص ٧.

ـ **أحدها**: أن لسانهم كان اللغة العربية.

ـ **الثاني**: أنهم كانوا من أولاد العرب.

ـ **الثالث**: أن مساكنهم كانت أرض العرب، وهي جزيرة العرب التي هي من بحر القلزم (البحر الأحمر) إلى بحر البصرة (الخليج العربي)، ومن أقصى حجر باليمن إلى أوائل الشام[1].

وقد نحا القلقشندي منحى آخر حين قرَّر أن العرب هم البدو والحضر، فقال: «قال الجوهري: العرب جيل من الناس، وهم أهل الأمصار، والأعراب سكان البادية، والنسبة إلى العرب عربي، وإلى الأعراب أعرابي.

والتحقيق إطلاق لفظ العرب على الجميع، وأن الأعراب نوع من العرب.

ثمَّ اتَّفقوا على تنويع العرب إلى نوعين: عاربة ومستعربة. فالعاربة هم العرب الأُول الذين فهَّمهم الله (تعالى) اللغة العربية ابتداءً فتكلموا بها.

قال الجوهري: (وقد يقال فيهم العرب العَرْباء). والمستعربة هم الداخلون في العربية بعد العجمية، قال الجوهري: (وربما قيل لهم المتعرِّبة)[2].

إذا كان القدماء قد ميَّزوا بين طبقات العرب وانتسابهم القبلي

---

(1) الألوسي، محمود شكري، م. س، م١، ص ١٠.

(2) القلقشندي، أحمد بن علي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، م١، تعليق محمد حسين شمس الدين، بيروت، دار الكتب العلمية، ط٢، سنة ٢٠١٢، ص ٣٥٩.

أو الجغرافي، أو أنهم قسموهم بين بدوٍ وحَضَر، فإنه لم يعد موجوداً قوم قد أوغلوا في البداوة، وإنما اختُصِرَت المسافات، وبات التواصل ميسَّراً، والتفاعل سهلاً، وبناء عليه لم يعد ثمَّة حواجز بين الناس في المجتمع الواحد، وباتت التسمية موحدة، وبناء على ذلك صار الاسم المعتمد حالياً العرب، وتُقال للجميع مع التنوُّع العقدي والقبلي.

لقد اعتمد هذا المسار المعاصرون من المؤرِّخين وعلماء الاجتماع والسياسة. منهم المؤرخ المعاصر الدكتور جواد علي؛ الذي قال: «تُطلق لفظة العرب اليوم على سكان بلاد واسعة يكتبون ويؤلِّفون وينشرون ويخاطبون بالإذاعة والتلفزيون بلغةٍ واحدة، نقول لها: لغة العرب، أو لغة الضّاد، أو لغة القرآن الكريم. وإن تكلَّموا وتفاهموا وتعاملوا فيما بينهم، وفي الحياة اليومية أدُّوا ذلك بلهجات محليَّة متباينة، ذلك لأن تلك اللهجات إذا أُرجعت رجعت إلى أصل واحد هو اللسان العربي المذكور، وإلى ألسنة قبائل عربية قديمة، وإلى ألفاظ أعجمية دخلت تلك اللهجات بعوامل عديدة.

ونحن إذ نطلق لفظ (عرب) و(العرب) على سكان البلاد العربية، فإنما نطلقها إطلاقاً عاماً على البدو وعلى الحضر، لا نفرِّق بين طائفة من الطائفتين، ولا بين بلد وبلد. نطلقها بمعنى جنسية وقومية»[(١)].

ولأن الثقافة سمة تميّز كل أمة عن سواها من الأمم، ولأن الثقافة هي الهوية، والثقافة ـ كما هو معلوم ـ تشمل العقيدة والدين، واللغة، والفكر ومنظومات القِيَم، والفنون، والآداب، والعادات والأعراف

---

(١) علي، د. جواد، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج ١، بغداد، منشورات جامعة بغداد، ط ٢، سنة ١٤١٣ ـ ١٩٩١م، ص ١٣.

وغير ذلك من خصائص تكوين الشخصية الإنسانية فرداً ومجتمعاً، فإن العرب أمة لأنهم يتميَّزون منذ أقدم العصور بثقافة كانت لها تجلياتها، وحالاتها التي تنطلق من الكلِّيَّة إلى التجزيئيَّة، ومن الأصول إلى الفروع، لكن الدارس المحقق البعيد عن الأهواء، والموضوعي المنهج يقرُّ أن الأمة العربية التي تقع ضمن الحدود الآنفة الذكر إنما هي أمة واحدة أصولاً وفروعاً.

قال جواد علي: إذاً «لكل أمة عقلية خاصة بها، تظهر في تعامل أفرادها بعضهم مع بعض، وفي تعامل تلك الأمم مع الأُمم الأُخرى، كما أن لكل أمة نفسية تميِّزها عن نفسيات الأُمم الأُخرى، وشخصية تمثِّل تلك الأمة، وملامح تكون غالبة على أكثر أفرادها، تجعلها سمة لتلك الأمة تميِّزها عن سمات الأُمم الأُخرى.

والعرب مثل غيرهم من الناس، لهم ملامح امتازوا بها عن غيرهم، وعقلية خاصة بهم، ولهم شمائل عُرفوا واشتهروا بها بين أُمم العالم»[1].

---

(١) علي، د. جواد، م. س، ج ١، ص ٢٦١.

العرب ينتشرون تاريخياً وتتنوَّع الأسماء

يعيد المؤرخون أصل العرب بعد التقسيم إلى: عرب عاربة وعرب مستعربة، وإلى أعراب (بدو) وعرب (حَضَر)، وإلى نوع ثالث من التقسيمات؛ منها القول: عرب الشمال، وعرب الجنوب، ويقصدون بالشماليين العرب من أصول حجازية، والجنوبيين العرب من أصول يمنية. وممن تحدثوا عن هذا التقسيم جرجي زيدان القائل عن عرب الشمال: «يقول العرب أن هذه الطبقة تشتمل على عاد وثمود والعمالقة وطسم وجديس وأُميم وجرهم الأُولى وحضرموت ومن ينتمي إليهم، ويسمونها العرب العاربة»[1].

ولعرض الانتشار العربي في أرض الأمة يتحدث جرجي زيدان عن العمالقة قائلاً: «يريد المؤرخون بالعمالقة قدماء العرب، وخصوصاً أهل شمالي الحجاز مما يلي جزيرة سيناء، الذين فتحوا مصر باسم الشّاسو (البدو الرعاة)، ويسميهم اليونان: هيكسوس»[2].

والعمالقة الذين هم عرب أصلاً ونسباً، قد انتشروا في أكثر من اتجاه، وهذا يبيِّن بجلاء نموذجاً من نماذج الأصول الواحدة لأبناء الأمة العربية، وهذه الأصول والحديث عنها لا يُراد منها إثارة عصبية، بل إنَّ هؤلاء السكان استوعبوا معهم كل من عاش في الأمة وتعرَّب لساناً وثقافة.

تقول مراجع أرَّخت للعرب قبل الإسلام: «عمليق جدُّ العمالقة، هو شقيق طسم، ويذكرون أنهم كانوا أُمماً كثيرة، تفرّقت في البلاد،

---

(١) زيدان، جرجي، العرب قبل الإسلام، مراجعة وتعليق د. حسين مؤنس، القاهرة، دار الهلال، بدون تاريخ، ص ٤٩.

(٢) زيدان، جرجي، م. س، ص ٥٠، ٥١.

فكان منهم أهل عُمان وأهل الحجاز وأهل الشام وأهل مصر.

.... والعمالقة الذين نتحدَّث عنهم، هم عرب صرحاء، من أقدم العرب زماناً، لسانهم اللسان المُضَرِي الذي هو لسان كل العرب البائدة؛ على حدِّ قول أهل الأخبار. بل زعم بعضهم أن عمليقاً، وهو أبو العمالقة، أول من تكلم العربية حين ظعنوا من بابل، فكان يقال لهم ولجرهم: العرب العاربة»[1].

هذا غيضٌ من فيض الانتشار والانتقال السكاني التواصلي والتفاعلي، لا يختلف عنه أمر عرب الجنوب أو عرب اليمن، و«يراد باليمن في التاريخ القديم ما يسميه اليونان: Arabia Felix؛ أي العربية السعيدة، ولعلها ترجمة (اليُمن) من البركة، لكثرة خيراتها إلى البادية في الشمال، كأنهم يريدون بها بلاد العرب العامرة أو الحضر. ويحدُّها عندهم خليج العجم من الشرق، وبحر العرب من الجنوب، والبحر الأحمر من الغرب؛ ويسمونه خليج العرب، وأما من الشمال فتحدُّها البادية، وهي بادية الشَّام والعراق، وبلاد العرب الصخرية (بطرا)، ويدخل في بلاد اليمن على هذا التحديد: اليمن وحضرموت والشَّحر وعُمان والعروض ومعظم الحجاز وتهامة ونجد وغيرها»[2].

اليمن السعيد هذا لم يتوقف الانتشار السكاني منه عند هذه الحدود، بل امتد باتجاه بلاد المغرب العربي، فوصل إلى مناطق في الجزائر، وقد ذكر محمد بن جرير الطبري ذلك، فقال: «إن

---

(١) علي، د. جواد، م. س، ج ١، ص٣٤٦.

(٢) زيدان، جرجي، م. س، ص١١٩.

المُلك باليمن صار بعد بلقيس إلى ياسر بن عمرو بن يعفر؛ الذي كان يقال له: ياسر أنعم، قال: وإنما سمُّوه ياسر أنعم لإنعامه عليهم بما قوَّى من ملكهم، وجَمَعَ من أمرهم، قال: فزعم أهل اليمن أنَّه سار غازياً نحو المغرب حتى بلغ وادياً يقال له: وادي الرمل، ولم يبلغه أحد قبله»[1].

هذه الواقعة التي أوردها ابن جرير الطبري في تاريخه، والتي تشير إلى هجرة عربية من عرب اليمن إلى المغرب العربي؛ أكَّدها صاحب «الكامل في التاريخ» وأضاف إلى ذلك حقائق بشأن الانتشار العربي في اتجاهات عدَّة في الأمة العربية. ورد في «الكامل في التاريخ»: «وصار الملك بعد بلقيس إلى ياسر بن عمرو بن يعفر الذي يقال له: أنعم الإنعامة. قال أهل اليمن إنه سار غازياً نحو المغرب حتى بلغ وادياً يقال له: وادي الرَّمل»[2].

هذا الانتشار للعرب كان باتجاه مصر وبلاد الشام، ومنطقة الخليج وسواها، حيث يقول ابن الأثير: «فمن ولد لاود بن سام فارس وجرجان وطسم وعمليق، وهو أبو العماليق، ومنهم كانت الجبابرة بالشام الذين يقال لهم الكنعانيون، والفراعنة بمصر، وكان أهل البحرين وعُمان منهم، ويسمُّون جاشم. وكان منهم بنو أميم بن لاود أهل وبار بأرض الرَّمل، وهي بين اليمامة والشِّحر،.... وكان طسم

(١) الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الأُمم والملوك، م ١، ج ٢، بيروت، دار الفكر، سنة ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م، ص ٢.

(٢) ابن الأثير، عز الدين، الكامل في التاريخ، م ١، بيروت، دار صادر، ط ٦، سنة ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م، ص ٢٧٦.

ساكني اليمامة إلى البحرين، فكانت طسم والعماليق وأميم وجاشم، قوماً عرباً لسانهم عربي»[1].

لم يقتصر هذا التواصل السكاني الاجتماعي على من يخرجون من جزيرة العرب في الحجاز أو اليمن، وإنما كانت هناك غزوات وتحركات مقابلة قام بها آخرون باتجاه مساحات كبيرة من أرض الوطن العربي. وكان من ذلك خروجٌ من مصر ورد عن وقائعه في كتاب: «العرب قبل الإسلام»: «أقدم من غزا بلاد العرب من الدول المجاورة المصريون، وأول من فعل ذلك منهم، أُحمس، مؤسس الدولة الثامنة عشرة، ومنقذ مصر من دولة العمالقة (الشاسو)، فإنه بعد إخراجهم من القطر المصري طاردهم إلى أواسط جزيرة سيناء، نحو سنة ١٧٠٠ ق.م، ثم اضطر إلى الرجوع لردِّ هجمات الأثيوبيين والنوبيين عن بلاده،... وظهر من تلك العائلة تحوطمس الثالث، الفاتح المصري.... وحمل بجيشه على الشرق في القرن السادس عشر قبل الميلاد، فقطع برزخ السويس واكتسح أعالي جزيرة العرب وسوريا وفلسطين وفينيقية وما بين النهرين»[2].

هذه الإشارات من قِبَل المؤرخين التي تفيد أن العرب بكل مكوناتهم انتشروا في اتجاهات عدَّة، وقد اتَّخذ بعضهم أسماءً حين كوَّن دولاً أو كيانات سياسية ومجتمعية، وكان هذا الاجتماع العربي مرناً، فيه استعداد لاستيعاب كل من دخل في عناصر مكونات الأمة العربية البشرية.

---

(١) ابن الأثير، عز الدين، م. س، م١، ص٧٨.

(٢) زيدان، جرجي، م. س، ص ١١٠.

لقد قـرر باحثون كثيرون، وأهل اختصاص فـي التاريخ القديم هذه الحقيقة الحاسـمة في قرارها، أن العرب سكَّان الأمة العربية الأصلاء، وإنَّ أي كلام عـن أصول غيـر العربية إنما هو مواقف تريد نشـر الفكر التفتيتي.

هذا كتـاب «عروبة مصر قبل الإسـلام» قد حـوى الموقف الآتي: «إن الأقسـام الشـرقية مـن مصـر، ولا سـيما المناطق المتصلـة بطور سيناء، مأهولة بقبائل عربية منذ زمن قديم، وطور سيناء نفسها موطن قديم من مواطـن العرب، ومن هنا ندرك لماذا أقـام قدماء المصريين حصونـاً قوية متتابعة على حدود الدلتا الشـرقية بالقـرب من المناطق القريبة من برزخ السويس، وكان برزخ السويس قديماً يسمى (شور)، وهو لفظ سـاميٌّ معناه (سـور)، ويعني غالباً منطقـة الحواجز المنيعة من القلاع التي بناها الفراعنة عبر خليج السـويس، حيث كان العرب ينزلـون الأرض المصرية المحصورة بين النيـل والبحر الأحمر، وفي المنطقـة الواقعـة شـرق النيل (مراكـز حضـارات الحجـر الحديث)، وكذلـك المناطـق الواقعـة جنوبي البحـر المتوسـط، والمتصلة بطور سيناء، موطن سكنى العرب منذ القدم، ومن هنا فإن العرب من قدماء سـكان مصر منذ القدم لا كما يتصـور العامة والسُّـذج والمغرضون؛ والذين لا يتعمَّقـون في دراسـة التاريخ القديم مـن أن العرب دخلوا مصـر مع الفتـح... إن العروبـة في مصر قديمة قِدم أول إنسـان نشـأ على هذه الأرض»[1].

---

(١) الغنيمـي، د. عبـد الفتّـاح مقلّـد، عروبة مصر قبـل الإسـلام، القاهرة، شـركة دار الإشعاع للطباعة، سنة ١٤١٢هـ ـ ١٩٩٣م، ص٥٨.

وإذا يممنا شطر المغرب العربي الكبير فإننا نجد أن الحال لا تختلف لجهة الأصول السكانية، فالبربر أو المازيغ أو الأمازيغ، الذين يشكِّلون مكوِّناً رئيساً في بلاد المغرب، إنما هم عرب خرجوا من أرض فلسطين وما يجاورها باتجاه المغرب وانتشروا فيها.

لقد قرر ذلك أكثر من مؤرخ، مثل المسعودي حيث قال: «إن أرض البربر ـ خاصة ـ كانت أرض فلسطين من بلاد الشّام، وأن ملكهم كان جالوت، وهذا الاسم سمة لسائر ملوكهم، إلى أن قتل داود عليه الصلاة والسَّلام ملكهم جالوت، فلم يتملَّك عليهم بعده ملك، وأنهم انتهوا إلى ديار المغرب إلى موضع يُعرف بلوبية ومرافية، فانتشروا هنالك، فنزل منهم زناتة ومغيلة وضريسة الجبال من تلك الديار وتبطَّنوا الأودية، ونزلوا أرض برقة، ونزلت هوّارة بلاد إياس، وهي بلاد طرابلس المغرب؛ أي الثلاث مدن، وقد كانت هذه الديار للإفرنجة والروم، فانجلوا عن البربر حين أوطنوا أرضهم إلى جزائر البحر الرومي، فسكن الأكثر منهم جزيرة صقلية، وتفرَّقت البربر ببلاد إفريقية وأقاصي بلاد المغرب من نحو مسافة ألفي ميل، وانتهوا إلى موضع يُعرف بقبوسة، على أكثر من ألفي ميل من بلاد القيروان، وتراجعت الروم والإفرنجة إلى مدنهم وعمائرهم، وذلك على موادعة وصلح من البربر»[1].

بعد هذا السرد التاريخي يشير المسعودي إلى أن اختلافاً قد حصل

---

(١) المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين، مروج الذهب ومعادن الجوهر، م ٢، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، بيروت، دار الفكر، ط ٥، سنة ١٣٩٣هـ ـ ١٩٧٣م، ص ١١٩.

في الأصل القبلي للبربر من دون أن يقول أحد بأنهم ليسوا من أصول عربية، فقد قال: «وقد حصل تنازع في بدء أنساب البربر؛ فمنهم من رأى أنهم من غسّان، وغيرهم من اليمن، وأنهم تفرقوا حول الديار حين تفرَّق الناس من بلاد مأرب عندما كان من سيل العرم، ومنهم من رأى أنهم من قيس عيلان، ومنهم من رأى غير ذلك»[1].

تابع القلقشندي مؤكداً عروبة البربر، وقد قرَّر ذلك بعد أن عرض مواقف متردِّدة في هذا الموضوع، وكان قوله في إطار التحديد من هم العرب؟ بأن الكلام بشأن البربر كان على الوجه الآتي: «وقد اختُلف في نَسبهم اختلافاً كثيراً، فذهبت طائفة من النسَّابين أنَّهم من العرب، ثم اختُلف في ذلك؛ فقيل: أوزاع من اليمن، وقيل: من غسّان وغيرهم تفرَّقوا عند سيل العرم... وقيل: خلَّفهم أبرهة ذو المنار أحد تبابعة اليمن حين غزا المغرب، وقيل: من ولد لقمان بن حمير بن سبأ، بعث سرية من بنيه إلى المغرب ليعمره، فنزلوا وتناسلوا فيه، وقيل: من لخم وجذام، كانوا نازلين بفلسطين من الشام إلى أن أخرجهم منها بعض ملوك الفرس فلجأوا إلى مصر، فمنعهم ملوكها من نزولها، فذهبوا إلى المغرب فنزلوه؛ وذهبوا إلى أنهم من ولد لقشان بن إبراهيم الخليل عليه السلام، وذكر الحمداني أنهم من ولد بربر بن قيذار ابن إسماعيل عليه السلام، وإنه ارتكب ذنباً فقال له أبوه: البرُّ البرُّ، اذهب يا برُّ فما أنت برُّ... وقيل: أخلاط من كنعان والعماليق، وقيل: من حمير ومضر والقبط»[2].

---

(١) المسعودي، م. س، م ٢، ص ١٤٤.

(٢) القلقشندي، أحمد بن علي، م. س، م ١، ص ٤١٤.

ويقول القلقشندي كذلك ـ بشأن البربر وأصولهم ـ: «وقيل: من ولد جالوت ملك بني إسرائيل (نسل النبي يعقوب عليه السلام)، وأنه لما قتل داود عليه السلام جالوت تفرَّقوا في البلاد، فلما غزا أفريقيس المغرب نقلهم من سواحل الشّام وأسكنهم المغرب وسمَّاهم البربر»[1].

تُبيِّن المتابعة التاريخية أن البربر عرب، وقد كان الاختلاف حول النسب العربي الذي تناسلوا منه ليس أكثر، وقد قرَّر صاحب كتاب: المختصر في أخبار البشر، أنهم عرب من الكنعانيين، فقال: «الأصح أنهم من ولد كنعان، وأنه لما قتل ملكهم جالوت، وتفرقت بنو كنعان، قصدت منهم طائفة بلاد المغرب وسكنوا تلك البلاد، وهم البربر، وقبائل البربر كثيرة جدًّا»[2].

قبل ذكر ما قاله المؤرِّخون المعاصرون الثقات، يفيد أن نعود إلى «القلقشندي» في كتابه ـ المذكور بين مصادر الكتاب ـ المعنون: «نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب»، حيث يجد القارئ جملة من القبائل العربية، وقد ذكر القلقشندي انتشارها في مصر وبلاد المغرب، ومما جاء في هذا السياق:

«أولاد صورة: بطن من العرب، بلادهم مما يلي بشرى من بلاد المغرب من الجهة الغربية».

(١) القلقشندي، أحمد بن علي، نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، بيروت، دار الكتب العلمية، ط ٢، سنة ١٤٣٣هـ ـ ٢٠١٢م، ص ١١٧.

(٢) أبو أيوب، أبو الفداء إسماعيل، تاريخ أبي الفداء المسمى: المختصر في أخبار البشر، ج ١، علَّق عليه ووضع حواشيه محمود ديوب، بيروت، دار الكتب العلمية، ط ١، سنة ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٧م، ص ١٥٢.

«البركات: بطن من لبيد من سليم من العدنانية... وأما مساكنهم مع قومهم ببلاد برقة».

«البلابيش: بطن من لبيد من سليم من العدنانية، منازلهم بلاد برقة».

«الجواشنة: بطن من الحميديين من هلبا سويد من جذام من القحطانية، ومسكنهم الحوف من الشرقية، من الديار المصرية».

«الجواشنة: ـ أيضًا ـ بطن من لبيد من سليم من العدنانية، مساكنهم بلاد برقة».

«الجواهرة: بطن من ثعلبة طي من القحطانية، قال الحمداني: جماعة سنجر بن هندي، ومنازلهم مع قومهم من ثعلبة بمصر والشام».

«الجواري: بطن من دباب من بهتة من سليم من العدنانية، قال في العبر (أي ابن خلدون): وهم رؤساء دباب الآن، ومنازلهم فيما بين طرابلس الغرب وفاس».

«بنو زغب: بطن من بهتة من سليم من العدنانية... كانت ديارهم في بلاد الحرمين، ثم انتقلوا إلى المغرب فسكنوا بأفريقية جوار إخوتهم من بني رباب بن مالك».

«بنو زنارة: أكثر زنارة ببلاد المغرب وبعضهم ببلاد البحيرة من الديار المصرية... مساكنهم فيما بين الإسكندرية والعقبة ببرقة».

وتطول القائمة لو أراد متابعٌ للأصول السكانية في المغرب العربي الكبير، حيث ستتعدد القبائل العربية التي انتشرت في تلك البلاد، أو الأفخاذ من القبائل، والأمر نفسه بالنسبة لمصر، وكان ذلك منذ

آلاف السنين، وقد سبق بسنوات بالآلاف الفتوحات ودخول الإسلام بعد البعثة النبوية الشريفة.

إلا أن المسألة الأكثر جدلاً ـ هذه الأيام ـ هي الأصول السكانية لقوم الأمازيغ (البربر)، علماً أن المصادر التاريخية ـ كما مرَّ سابقاً ـ تؤكد عروبة البربر، وقد ذهب المؤرخون المعاصرون المذهب نفسه، فقرروا بعد بحث وتمحيص أن البربر عرب.

تابع أحد المعاصرين ما قاله المسعودي، وأكَّده حيث قال: «اختُلف في نسبهم كثيراً، فذهبت طائفة من النسَّابين إلى أنهم من العرب، وقيل: إنهم أوزاع من اليمن، وقيل: من غسَّان وغيرهم تفرَّقوا عند سيل العرم، وقيل: خلَّفهم أبرهة ذو المنار تبَّع اليمن حين غزا المغرب، وقيل: من ولد لقمان بن حمير، بعث سرية من أبنائه للمغرب فعمروه.... وقيل: من لخم وجذام نزلوا فلسطين ثمَّ أخرجهم منها أحد الملوك الفرس ـ لعلَّ المقصود هو قورش أو بختنصر في القرن السابع ق.م ـ فلجأوا إلى مصر فرفضهم ملوكها ومنعوهم من نزولها، وذهب بعضهم إلى أنهم من ولد لقشان بن إبراهيم الخليل، وذكر الحمداني: أنه من ولد برِّ بن فيدار بن إسماعيل، ارتكب معصية فطرده أبوه، وقال له: البرُّ ـ البرُّ، إذهب يا برُّ فما أنت برُّ...

وقيل: من ولد برِّ بن علي بن مازيغ من كنعان... وقيل: أخلاط من العماليق وكنعان.

وقيل: من حمير ومضر والقبط، وقيل: من ولد جالوت، وهم قبائل كثيرة»[1].

---

(١) مادون، محمد علي، عروبة البربر: الحقيقة المغمورة، دمشق، ط ٢، سنة ١٩٩٧، ص١٩.

وقد أضاف المرجع نفسه مبيناً الأصول العربية لسكان المغرب العربي بأن أسماء البلدات والمدن قد تشابهت، ما يعني أن مَن رحلوا من اليمن وأرض الجزيرة العربية وسائر المناطق قد حملوا معهم الأسماء، وما جاء بشأن ذلك هو: «إن مدينة سوسة في تونس، التي ما زالت عامرة إلى اليوم، ما هي إلا مدينة شادها الأسلاف بعد هجرة الجنوبيين وبعض الكنعانيين إلى الشمال الإفريقي؛ حيث سمَّوها قبل ٤٠٠٠ سنة: حضرموت، باسم وطنهم الأول. وبربرة وزيلع هما من جزر اليمن، تحتفظان باسمهما لهذه الغاية، وتقفان عند باب المندب»[1].

لقد أثرى المؤرِّخ الجزائري المعاصر عثمان سعدي المكتبة العربية بكتاب دقيق المحتوى، غزير المادة، علمي المنهج، عنوانه: «الأمازيغ (البربر) عرب عاربة»، وقد نجح المؤرخ عثمان سعدي في جلاء غوامض كثيرة حول موضوع البربر.

بدأ أولاً مع التواصل بين الجزيرة ومصر والمغرب فقال: «يؤكد المؤرخون أن الأسرتين المصريتين الفرعونيتين، الثانية والعشرين والثالثة والعشرين، كانتا بربريتين، وهما من الأسرة الكبيرة التي حكمت مصر القديمة. وهذا يعتبر دليلاً واضحاً على التفاعل الموجود بين البربر وقدماء المصريين.

وكما سبق أن بيَّنَّا، فإن الهجرات من الجزيرة العربية نحو شمال إفريقيا وحوض البحر المتوسط وجنوب أوروبا، وخاصة إثر دورة الجليد المعروفة لدى المؤرخين باسم (فرم) قبل العشرين ألف سنة

---

(١) مادون، محمد علي، م. س، ص ١٩.

الأخيرة، عندما بدأ الجفاف يعمُّ الجزيرة العربية، والجليد يذوب من أوروبا وحوض البحر المتوسط»[1].

إن الأصل العربي للبربر جعل التفاعل بينهم وبين الفينيقيين سهلاً، وقد أثمر فضاء عربياً لسكان بلاد المغرب، كما أن التلاقي البربري الفينيقي الذي يحمل معه عقيدة قريبة جداً من التوحيد، وقد هيأ ذلك الأذهان والنفوس لاستقبال الإسلام. ومما قيل في هذا الباب:

«كما أن هؤلاء المؤرخين يرون أن الديانة الفينيقية، أي القرطاجنية، التي اعتنقها البربر، المؤسسة على شبه توحيد، هي التي جعلت نفوس البربر جاهزة لاستقبال الدين الإسلامي بهذه السهولة، بل وبهذه العفوية.

إن امبراطورية قرطاج، وحضارة قرطاج الراقية، التي استمرت سائدة في حوض البحر المتوسط وفي العالم، عدَّة قرون، تأسَّست نتيجة للتزاوج بين شعبين عربيين، الشعب الفينيقي القادم من لبنان، والشعب البربري الذي كان موجوداً بالشمال الإفريقي»[2].

يضيف المؤرخ عثمان سعدي: «إذاً فالبربر اندمجوا وتفاعلوا مع الفينيقيين، واعتبروا أنفسهم دائماً أنهم والفينيقيين من أصل واحد يتحالفون معهم ضد الرومان، وأن قرطاجنة كانت تعتبر امبراطورية مشرقية إفريقية في جنوب المتوسط في مواجهة امبراطورية روما بشمال البحر، وأن الوطنية المغربية في ذلك الوقت كانت تتمثَّل في التحالف مع قرطاجة ضد روما»[3].

---

(١) سعدي، عثمان، الأمازيغ (البربر) عرب عاربة، الجزائر، سنة ١٩٩٦، ص ٥٥.

(٢) سعدي، عثمان، م. س، ص ١٤.

(٣) سعدي، عثمان، م. س، ص ٥٧.

ويكمل المؤرخ عثمان سعدي بيانه وثمرة بحثه ودراساته مقرِّراً أن اللغة البربرية ما هي إلا لهجة من لهجات اللغة العربية القديمة، التي سُمِّيَت السامية (السامية نظرية متهافتة كما سيرد في سياق البحث)، وقد قال: «كل الدلائل تشير إلى أن البربر عرب في أصولهم، وأن اللغة البربرية لهجة من لهجات العربية القديمة (أي ما يسمى خطأ باللغة السامية)، وكل المتخصِّصين في الدراسات البربرية أثبتوا أن البربرية واحدة من اللغات السامية (أي العربية القديمة)، .... مشتقة من اللغة البونيقية»[1]. والبونيقية التي انتشرت بين سكان الشمال الإفريقي من القرطاجنيين والبربر قريبة جداً من العربية، لذلك لم تلبث إلَّا أن أخلت المكان للغة العربية.

إن الوجود العربي والانصهار بالأمة تعزَّز مع الإسلام، وقد شهد التاريخ العربي الإسلامي قيام حكومات وولايات من مشارب فكرية متعدِّدة، لكن رباطها الشامل كان العروبة والإسلام.

إن استطلاع الخريطة الديموغرافية لسكان المغرب تُبيِّن عروبة أهل البلاد، وما الكلام عن حراك بربري أمازيغي بروح انفصالية إلا مشروع استعماري، فالاستعمار عمد منذ عقود على اعتماد سياسة استعمارية قاعدتها مقولة: «فرِّق تَسُدْ»، ولا تزال هذه السياسة معتمدة، وفي كل مرة يعطيها المستعمر الغربي وشريكه الصهيوني اسماً مختلفاً؛ لكن المقصد واحد، ومقصدهم هو التفتيت والتقسيم كي يتمكَّنوا من السيطرة عندما تتحوَّل الأُمَّة إلى كيانات هزيلة.

لقد بيَّن هذه الحقيقة المؤرخ المعاصر عثمان سعدي الجزائري

---

(١) سعدي، عثمان، م. س، ص ٢٢.

حين قال: «إن البربر عرب عاربة، وإن البربرية لهجة للعربية القديمة (السامية)، بَطُلَ استعمالها بالمشرق ما عدا حضرموت باليمن التي لا زالت تستعمل بها، وبالمغرب العربي ومصر، وإن لهجات تلمسان ووهران وبسكرة وقسنطينة وعنّابة وجيجل والقاهرة وتونس هي لهجات للعربية الحديثة، لغة قريش والقرآن الكريم.

إن النزعة البربرية هي من خَلْقِ الاستعمار الفرنسي القديم بواسطة الظهير البربري بالمغرب سنة ١٩٣٠م، والذي أفشله رؤساء العشائر البربرية، وبواسطة مؤامرة ١٩٤٩م التي أفشلها حزب الشعب الجزائري. ومن خَلْق الاستعمار الفرنسي الجديد عندما أسَّس الأكاديمية البربرية في باريس سنة ١٩٨٧م»[١].

وهناك قبائل عربية أخرى توطَّنت في المغرب، ومما قاله القلقشندي: «زنَّاته (بكسر الزَّاي): وهم بطن من البُتْر بن البربر... ومن زنَّاته بنو مرين... ومن بني مرين هؤلاء بنو عبد الحقِّ ملوك فاس القائمون بها إلى الآن... ومن زنَّاته أيضاً بنو عبد الواحد ملوك تلمسان من المغرب الأوسط القائمون بها إلى الآن»[٢].

ثمَّ تحدَّث القلقشندي عن قبائل صنهاجة من العرب، فقال: «وهم بنو صنهاجة بن برنس بن بربر، وقيل: صنهاج بن أوريغ بن برنس بن بربر، ويقال: إنهم من حمير من عرب اليمن»[٣].

وبنو صنهاجة لهم مساحة في كتاب المؤرخ عثمان سعدي؛ حيث

---

(١) سعدي، عثمان، م. س، ص ١٧٠.
(٢) القلقشندي، أحمد بن علي، م. س، م ١، ص ٤١٦.
(٣) القلقشندي، أحمد بن علي، م. س، م ١، ص ٤١٧.

قال عنهم: «إن هذه الدولة الصنهاجية بفرعيها: بني زيري في المغرب الأدنى، وبني حماد في المغرب الأوسط، والتي دام حكمها ما يقرب من قرنين، أدَّت دورها كاملاً في تطوير المغرب بالميادين العمرانية والفكرية والفنية. وصل نفوذ هذه الأسرة البربرية حتى الأندلس، حيث حكم أحد فروعها، وهو فرع بني حبوس بن ماكس، إمارة غرناطة والبيرة ثمانين سنة تقريباً. **إن هذه الدولة الصنهاجية البربرية أكدت حقيقة الأصل العربي للبربر، فطوال حكمها بالأندلس لم يبرز تصرف واحد من أمير من أمرائها يشير إلى شعوبية أو عنصرية بربرية، بل اعتبروا أنفسهم عرباً ترجع أصولهم العربية إلى ما قبل الفتح الإسلامي بكثير**»[1].

هذا هو واقع انتشار العرب في القسم الإفريقي من الأمة العربية، وهناك توسُّع في هذا الانتشار بعد الإسلام منذ القرن الأول للهجرة، وإذا أخذنا موريتانيا أو أرض شنقيط نموذجاً نعرف حقيقة ذلك، فقد قال المؤرخ الأديب الخليل النحوي: «ولكن دخول العرب في حدِّ ذاته، ورغم بعض الظواهر غير الإسلامية التي رافقته (حروب قبلية، نهب...) كان دعماً للإسلام الذي يبقى ببقاء العرب، ويقوى بانتشار لغتهم... كان ذوو حسّان هؤلاء يحتكرون لفظة العرب لأنفسهم ولا يسمحون بهذه اللفظة لغيرهم... لأنه لا يستحق ذلك الاسم لضعفه. وقد يرقى طرف من العشيرة على طرف فيُدعى الأعلون عرباً...

وهكذا أصبحت العروبة مفهوماً غير سلالي، مستنداً إلى قِيَم

---

(١) سعدي، عثمان، م. س، ص ١١٧.

البطولة والتضحية والإقدام والنخوة والشَّهامة. فصارت حسَّان تُطلق على كل مجموعة حملت الإسلام فتخلَّقت بأخلاق عرب المعقل وسارت على نهجهم في الحياة.»[1] يرتفع نسب القبائل الحسَّانية إلى جعفر بن أبي طالب.

هذا الانتشار العربي، كان كذلك باتجاه بلاد الشام وبلاد ما بين النهرين، وكان الحراك الاجتماعي للعرب في هذه المناطق جزءاً من الحراك في الجزيرة العربية، ونترك لأبي عباس القلقشندي (ت ٨٢١هـ) عرض ذلك، حيث قال: «إن مساكن العرب في ابتداء الأمر كانت بجزيرة العرب الواقعة في أواسط المعمور، وأعدل أماكنه وأفضل بقاعه، حيث الكعبة الحرام وتربة أشرف الأنام نبينا محمد عليه الصَّلاة والسَّلام، وما حول ذلك من الأماكن، وهذه الجزيرة متَّسعة الأرجاء، ممتدة الأطراف، يحيط بها من جهة الغرب بعض بادية الشام، حيث البلقا إلى أيلة، ثم القلزم الآخذ من أيلة، حيث العقبة الموجودة بطريق حجاج مصر إلى الحجاز إلى أطراف اليمن حيث طيّ وزبيد وما داناهما، ومن جهة الجنوب بحر الهند المتصل به بحر القلزم ـ المقدم ذكره ـ من جهة الجنوب إلى عدن إلى أطراف اليمن حيث بلاد مهرة من ظفار وما حولها، ومن جهة الشَّرق بحر فارس الخارج من بحر الهند إلى جهة الشمال إلى البحرين، ثمَّ إلى أطراف البصرة، ثمَّ إلى الكوفة من بلاد العراق، ومن جهة الشمال الفرات آخذاً من الكوفة على حدود العراق إلى

---

(١) النحوي، الخليل، بلاد شنقيط: المنارة والرباط، تونس، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، سنة ١٩٨٧، ص٣٢، وص ٣٤.

عانة إلى بالس بلاد الجزيرة الفراتية إلى البلقا من برية الشَّام حيث وقع الابتداء»[1].

لقد تحرَّك العرب في الأرض ليكون منهم النسيج الاجتماعي الذي شكَّل القسم الآسيوي من الأمة العربية. ومما قيل بهذا الصدد: «إن ثلاث قبائل من عرب اليمن وهم: بكر وربيعة ومضر، هاجروا من اليمن عند حادثة سيل العرم، وسكنوا شمال ما بين نهري دجلة والفرات، وهو المسمّى الجزيرة، فسمِّيت حينئذٍ تلك النواحي: ديار بكر، وديار ربيعة، وديار مضر، وفيها يجري نهر الخابور»[2].

مارس عملية بحث دقيقة، ومتابعة سليمة المؤرخ المعاصر الدكتور أحمد سوسة[3] (ت في ٦/ ٢/ ١٩٨٢)، وقد ورد عنده: «هجرة الأكديين إلى وادي الرافدين وتأسيس أول أمبراطورية عربية... وتعتبر هذه الهجرة أقدم هجرة بين الهجرات الصحراوية العربية الذين نزحوا من الجزيرة العربية إلى ضفاف الفرات... واللغة الأكدية ومعها البابلية والأشورية هي من اللغات العربية.... وقد استمرت الأكدية كلغة للتخاطب في العهد البابلي القديم، والعهد الأشوري، والعهد البابلي الأخير، وحتى أواخر القرن السابع قبل الميلاد، ثمَّ زاحمتها اللغة الآرامية.» ويقول الدكتور أحمد سوسة: «عرضنا فيما تقدَّم

---

(١) القلقشندي، نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، م. س، ص ٢٣.

(٢) الألوسي، م. س، م ١، ص ٢١٥.

(٣) سوسة، الدكتور أحمد، العرب واليهود في التاريخ، دمشق، العربي للإعلان والنشر، ط ٧، بدون تاريخ، ص ١٨٤ وما بعدها.

صورة عامة لأقدم الأقوام العربية التي نزحت من جزيرة العرب إلى الهلال الخصيب، وهم: الكنعانيون والعموريون والآراميون والأكديون والهيكسوس، وهؤلاء كلهم قد اتجهوا نحو سورية ولبنان وفلسطين والعراق ومصر، وكان الفرات هدف الذين اتجهوا إلى سورية والعراق. أما ناحية نهر دجلة فكان أول من قصدها من القبائل العربية جماعات عبرت نهر الفرات فتوغَّلت في منطقة ما بين النهرين، ثمَّ استقرت في حوالي أواخر الألف الرابعة أو أوائل الثالثة قبل الميلاد في المنطقة الشمالية من العراق، في البقعة الممتدة على طول ضفة نهر دجلة اليمنى بين الموصل والشرقاط، وكانت هذه المنطقة تُعرف باسم شوبارتو، فأسست هذه الجماعات مدينة هناك صارت تُعرف فيما بعد بمدينة آشور نسبة إلى الإله آشور، إله القوم الذين سكنوا هذه الديار»[1].

بعدها جاء الكلام عن الكلدانيين (الآراميين)، فقال الدكتور أحمد سوسة: «يُرجع علماء الآثار أصل الكلدانيين إلى شواطئ الخليج العربي في جنوب العراق، حيث أُسست هناك منذ القرن الثامن عشر قبل الميلاد أو ربما قبل ذلك سلالة الأمراء، التي عُرفت عند المؤرخين بسلالة القطر البحري، أو سلالة بابل الثانية، التي كانت بالدرجة الأولى من بقايا السومريين... والكلدانيون هم القبائل البدوية العربية»[2].

ويدخل في السياق نفسه لانتشار العرب في الشام والعراق موضوع

---

(١) سوسة، د. أحمد، م. س، ص٢٠٥، ٢٠٦.

(٢) سوسة، د. أحمد، م. س، ص٢١٦.

الغساسنة، جاء عند القلقشندي: «بنو غسان: حيٌّ من الأزد من القحطانية... قال: سُمُّوا غساناً لماءٍ اسمه غسان بين زبيد وربع، شربوا منه، وذكر الحمداني، إن في البلقاء طائفة منهم وباليرموك الجمُّ الغفير، وبحمص منهم جماعة»[1].

أما اللخميون فقد كان انتشارهم أكثر اتساعاً كما عرض القلقشندي، فقد قال: «بنو لخم: قبيلة من كهلان، ولخم هذا أخو جذام عمِّ كندة، وقد كان للَّخميين ملك بالحيرة من العراق، وكان لبقاياهم ملك بإشبيلية من الأندلس، وهي دولة بني عباد،... وقد ذكر القضاعي في (خطط مصر) أنهم حضروا فتح مصر واختطوا بها، ومن خالطهم من جذام. قال الحمداني: وبصعيد مصر، منهم قوم مساكنهم بالبرِّ الشرقي»[2].

كما أقام من القبائل المتأخرة في العراق مع اللخميين التنوخيون الذين استقروا على حدود العراق الغربية (١٢٦ق.م ـ ٢٢٧ب.م)، ومن اللخميين كان المناذرة الذين كانت نسبتهم إلى ملوكهم المنذر الأول والمنذر الثاني والمنذر الثالث... إلخ.

وكان من الإمارات العربية إمارة الأنباط. «مملكة النبط، مملكة عربية لم يعرف الأخباريون من أمرها شيئاً. سُداها ولحمتها النبط، وهم قوم من جبلة العرب.... والرأي السائد اليوم بين العلماء أن النبط عرب مثل سائر العرب... أمَّا أنهم سمّوا نبطاً لكثرة النبط عندهم، وهو الماء، أو لاستنباطهم الماء، وإنباطهم الآبار.... إن النبط عرب، بل هم

---

(١) القلقشندي، نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، م. س، ص٣٤٨.

(٢) القلقشندي، نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، م. س، ص٢٦٧.

أقـرب إلـى قريش وإلـى القبائـل الحجازية التـي أدركت الإسـلام من العرب الذين يُعرفون بالعرب الجنوبيين»[1].

ويبقـى أن يقف البحـث عند الكـرد، ورغم الاختلاف بشـأن أصول الكرد، وقبل الحديث عـن العروبة الحضارية، ومفهوم الانتماء للعروبة، فـإن بعـض المصادر قالـت بالأصـل العربي للكـرد، من هـذه المصادر «مروج الذهـب» الذي قال مؤلفـه: «وأما أجناس الأكـراد وأنواعهم فقد تنازع في بدئهم، فمنهم من رأى أنهم من ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان، انفـردوا في قديـم الزمـان، وانضافوا إلى الجبـال والأوديـة، دعتهم إلى ذلك الأنفـة، وجاوروا مَن هناك من الأُمم السـاكنة المـدن والعمائر من الأعاجم والفرس، فحالوا عن لسـانهم، وصارت لغتهم أعجمية؛ ولكل نوع من الأكراد لغة لهم بالكردية، ومن الناس من رأى أنهم من مضر بن نـزار، وأنهـم من ولـد كرد بـن مردين بـن صعصعة بـن هـوازن، وأنهم انفـردوا في قديم الزمـان لوقائع ودماء كانت بينهم وبين غسّـان، ومنهم مـن رأى أنهم من ربيعـة ومضر، وقد اعتصمـوا في الجبال طلبـاً للمياه والمراعي فحالوا عن اللغة العربية لما جاورهم من الأمم»[2].

هـذا البيان لأصول الكـرد الذي طرحه المسـعودي، وهـو المؤرخ المصدر من العصر العباسي، يستحق الوقوف أمامه؛ لأنه كان قبل أكثر من ألف سـنة مما يشـهده الواقع هذه الأيام من عصبيـات تعمل باحثة عن انتماءات إثنيَّة تبرر الفئويات والانقسام.

لقد أيَّد القول بالأصل العربي للكـرد ابن خلكان، حيث قال تحت

---

(١) علي، د. جواد، م. س، ج ٣، ص ٥ وما بعدها.

(٢) المسعودي، م. س، م ٢، ص ١٢٢، ١٢٣.

عنوان: (الكـرد عرب): «مزيقيا: لقب عمرو من ملوك اليمن، يلبس كل يوم حُلَّتين منسوجتين بالذهب، فإذا أمسى مزَّقهما وخلعهما.... حكى أبو عمر ابن عبد البر صاحب كتاب: (الاستيعاب) في كتابه الذي سمَّاه (القصـد والأمم فـي التعريـف بأصول أنسـاب العـرب والعجـم)، أن الأكـراد من نسـل عمـرو مُزيقياء، فتناسـلوا بهـا وكثر ولدهم، فسُـمُّوا الكرد، وقال بعض الشعراء، وهو يقصد ما قاله أبو عمر بن عبد البر:

لعمرك ما الأكراد أبناء فارس ولكنه كرد بن عمرو بن عامر»[1]

وذهـب المذهب نفسـه قائلاً بعروبـة الكرد مـن المتأخرين: محمد مرتضى الحسيني الزبيدي (ت ١٢٠٥ هـ)، وقد قال تحت مادة: (كرد) فـي «تـاج العـروس»: «الكـرد بالضم: جبـل معـروف وقبائل شـتَّى... اختُلـف في نسـبهم، فقيل: جدُّهـم كُرد بن عمـرو مُزَيقيـاء، وهو لقب لعمـرو، لأنه كان كل يـوم يلبس حُلَّة، فإذا كان آخـر النهار مزَّقها؛ لئلا تُلبس بعده، ابن عامر بن ماء السَّـماء، هكذا في سائر النُّسخ والصواب أن ماء السماء لقب لعامر، ويدل له قول الشاعر (أوس بن الصامت):

أنا ابـن مُزَيقياء عمـرو جدِّي أبـوه عامـر مـاء السَّـماء

... وقـال أبو اليقظـان: هـو كـرد بـن عمـرو بـن عامـر بن ربيعـة ابن عامر بن صعصعـة، وقـد ألـف فـي نسـب الأكـراد فاضـل عصره العلاّمة محمد أفنـدي الكردي، وذكر فيه أقـوالاً مختلفة... ورجَّح فيه أنه كرد بن كنعان بـن كوش بن حام بن نوح، وهم قبائـل كثيرة.... ثمَّ نقل عن (مناهج الفكر ومباهج العبر) للكتبي، ما نصُّه: أما الأكراد فقال

---

(١) ابن خلكان، أبو العباس، وفيات الأعيان، ج ٥، تحقيق د. إحسان عباس، بيروت، دار صادر، سنة ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٤م، ص ٣٥٧، ٣٥٨.

ابن دريد في (الجمهرة): الكرد أبو هذا الجيل الذين يسمون الأكراد، فزعم أبو اليقظان أنه كرد بن عمرو بن عامر بن ربيعة بن عامر بن صعصعة. وقال ابن الكلبي: هو كرد بن عمرو مُزَيقياء، وقعوا في ناحية الشمال لمّا كان سيل العرم، وتفرَّق أهل اليمن أيدي سبأ»[1].

إن هذا التجوال من المحيط إلى الخليج في أرجاء الأمة العربية مع الانتشار السكاني من قلب الجزيرة العربية في اليمن والحجاز؛ لم يكن القصد منه الوقوف عند حالات إثنية تجاوزها الانتماء العربي إلى الهوية الثقافية والمسار الحضاري، وإنما كان المقصد أن يقال: إن سكان هذه البقعة الواقعة بين المحيط والخليج تفاعلوا تاريخياً حتى مجيء الإسلام الذي تمَّ بفضله النسيج الاجتماعي الحضاري للأمة العربية، ويفيد التذكير هنا قبل الوصول إلى التفصيل بالحديث النبوي الشريف الآتي نصُّه: «يا أيها الناس إن الرَّبَّ ربٌّ واحد، وإن الأب أبٌ واحد، وإن الدين دين واحد، ألا وإن العربية ليست لكم بأبٍ ولا أمٍّ، إنما هي اللسان فمن تكلم بالعربية فهو عربي»[2].

---

(١) الزبيدي، محمد مرتضى الحسيني، تاج العروس، م٥، ج٩، م. س، ص ٥٩، ٦٠.

(٢) ابن عساكر، تاريخ دمشق، م٢٤، بيروت، دار الفكر، سنة ١٩٩٥، ص ٢٢٥.

تهافت نظرية السَّاميّة

لقد شغل موضوع السّامية ولا يزال الرأي العام، وصدَّق كثيرون مزاعم كتّاب «العهد القديم» وأحد أقسامه «التوراة» في هذا الأمر، وفعل أمر السّاميّة واللاساميّة فعله في المجتمعات الغربية، ولا يزال عاملاً ضاغطاً تثور حوله غبار، وتحصل محاكمات أمام القضاء ضدَّ كل من يقوم بأية مراجعة نقدية لما فعله ويقوم به يهود أو الحركة الصهيونية.

قبل بيان تهافت نظرية السّاميّة من الناحية الإثنية تجدر الإشارة إلى أن المؤرِّخين المعاصرين يجمعون على أن مجدِّد طرح مزاعم السَّامية هو النمساوي الصهيوني أوغست لودويك شلوتسر من خلال مقالة طرحها عام ١٧٨١م.

قال المؤرخ الدكتور جواد علي: «قد أخذ من أطلق هذه التسمية، تسميته من التوراة، أخذ من إسم سام بن نوح، جدِّ هذه الشعوب الأكبر، كما هو وارد فيها.

وأول من أطلقها وأذاعها بين العلماء، علماً على هذه الشعوب، عالم نمساوي إسمه أوغست لودويك شلوتسر August Ludwig Schloetzer، أطلقها عام ١٧٨١م فشاعت منذ ذلك الحين، وأصبحت عند العلماء والباحثين في موضوع لغات الشرق الأدنى عَلماً للمجموعة المذكورة من الشعوب وقد أخذ آيشهورن Joh. Cotte Eichhorn هذه التسمية، وسعى لتعميمها بين العلماء، عَلَماً على الشعوب المذكورة»[1].

---

(١) علي، د. جواد، م. س، ج ١، ص ٢٢٣.

وأكَّد مؤرخ معاصر، هو الدكتور علي معطي، الموقف نفسه، حيث قال: «اعتاد المؤرخون وعلماء الأجناس، أن يطلقوا كلمة سامية أو ساميين، على الأقوام والشعوب التي كانت تسكن منذ القديم منطقة الشرق الأدنى، مثل: البابليين، والآشوريين، والكنعانيين، والفينيقيين، والعبرانيين، والعموريين، والآراميين، والعرب، والأحباش،... وكان أول من استخدم هذه الكلمة وأطلقها على هذه الشعوب التي زعم أنها من صلب سام بن نوح، العالِم النمساوي أوغست لودفينغ شلوتزر August Ludwig Shlotezer في عام ١٧٨١ ميلادية. ومنذ ذلك العام شاع استعمال كلمة سامية بحيث أصبحت عند الباحثين أصلاً لتلك الطوائف من الشعوب التي كانت تسكن تلك المنطقة، وسرت إلى المؤرخين العرب وغير العرب بطريق الاقتباس والتقليد»[1].

أما نصوص التوراة في سفر التكوين التي اعتمدها مطلقو تسمية السَّامية فإنها مخطوطة بيد كتّاب العهد القديم، ويظهر فيها إرباك وتسلسل توالدي غير دقيق، وسيجد القارئ فيها أن شعوباً يعدُّها الملتزمون بمزاعم السّاميّة قد جاءت في النص من نسل غير سام بن نوح.

الخرافة الواردة حول السَّامية هي:

«وكان بنو نوح الذين خرجوا من السفينة ساماً وحاماً ويافثاً. وحام هو أبو كنعان. هؤلاء الثلاثة هم بنو نوح ومنهم انتشر الناس

---

(١) معطي، د. علي، تاريخ العرب السياسي قبل الإسلام، بيروت، دار المنهل اللبناني، ط ١، سنة ١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٤م، ص ٧٠، ٧١.

في الأرض»[1] والمغالطة بدأت من هذا النص الأول، لأن الكنعانيين هم أصل عريق في سكان الجزيرة العربية وفلسطين وعموم الأرض العربيـة، والكنعانيـون هم مَنْ بنـوا القدس أوائل الألـف الرابع قبل الميـلاد أو في الألف الخامـس، ومنهـم اليبوسـيون الذين كان قصر شـيخهم سـالم اليبوسـي على ربوة صهيون حوالي عام ٢٥٠٠ قبل الميلاد. ومن أسـماء القدس فـي العهد القديم (يبـوس)، فما القول في هذا؟

أما في العرض التفصيلي فالنص في التوراة هو:

«هذه سـلالة بني نوح، سـام وحام ويافث، ومن ولد لهم من البنين بعد الطوفان.

بنو يافث: جومر وماجوج وماداي وياوان وتوبل وماشك وتيراس.

وبنو جُومر: أشكناز وريفات وتوجرمة.

وبنو ياوان: أليشة وترشيش والكتِّيم والدودانيم.

من هـؤلاء تشـتت النَّاس فـي جـزر الأمم (جـزر البحر المتوسـط وشواطئه) هؤلاء بنو يافث بحسب بلدانهم كل بحسب لغته، وعشائرهم وأُممهم.

وبنو حام: كوش وحصرائيم وفُوط وكنعان.

وبنو كوش: سـبأ وقويلة وسـبْتة ورَعْمة وسـبتكا، وبنو رعمة: شـبأ ودَدان.

وكوش ولد نمرود، وهو أول جبار في الأرض.

---

(١) سفر التكوين، الإصحاح ٩، الفقرة ١٨.

وكان صياداً جباراً أمام الرب، ولذلك يقال: لنمرود صيَّاد جبَّار أمام الرَّب.

وكان أول مملكته بابل وأرك وأكّد وكَلْنة في أرض شِنعار.

ومن تلك الأرض خرج إلى أشور فبنى نينوى ورَحْبوت عير وكالح.

وراسَن، بين نينوى وكالح، وهي المدينة العظيمة.

ومصرائيم ولد اللُّوديم والعناميم واللهابيم والنفوتميم.

والعَفرَوسيم والكسلوحيم والكفتوريم الذين خرج منهم الفلسطينيون.

وكنعان ولد صيدون بِكره وحِثّا.

واليبوسي والأموري والجرجاشي والحُوِّي والعَرْقيّ والسّيني.

والأروادي والصّماري والحماني.

وبعد ذلك تفرَّقت عشائر الكنعانيين.

وكانت جدود الكنعانيين من صيدون وأنت آتٍ نحو جَرار إلى غزَّة، وأنت آتٍ نحو سدوم وعمورة وأدْمة وصبوئيم إلى لاشع.

هؤلاء بنو حام بحسب عشائرهم ولغاتهم وبلدانهم وأُممهم.

وولد لسام أيضاً بنون، وهو أبو جميع بني عابر وأخو يافث الأكبر.

وبنو سام: عيلام وأشور وأرفكشاد وكود وأرام.

وبنو آرام: عُوص وحُول وجاثر وماش.

وأرفكشاد: وَلَد شالح، وشالح وَلَد عابر.

ووُلِد لعابر ابنان: اسم أحدهما فالج لأنه في أيامه انقسمت الأرض، واسم أخيه يُقْطان.

ويُقْطان ولد الموداد وشالَف وحضرموت ويارح.

وهدورام وأوزال ودِمَلة.

وعوبال وإيمائيل وشيأ.

وأدفير وحويله ويوباب وجميع هؤلاء بنو يقطان.

وكانوا يقيمون من ميشا وأنت آتٍ نحو سفار، جبل المشرق.

هؤلاء بنو سام بحسب عشائرهم ولغاتهم وبلدانهم وأممهم.

هؤلاء عشائر بني نوح بحسب سلالاتهم وأُممهم، ومنهم تشتت الأمم في الأرض بعد الطوفان»[1].

لقد ورد في هذه النصوص من (سِفر التكوين) من (التوراة) وهي القسم الأول من (العهد القديم)، خلط عجيب، أبرزه أنهم جعلوا الكنعانيين من ولد حام وهو في زعمهم جدُّ الأفارقة، والمعلوم أن الكنعانيين هم أصل سكاني كبير، وانتشارهم واسع في أكثر من بقعة، وهم مؤسسو مدينة القدس. ثم نجد عرضهم قد غابت عنه قبائل عربية عديدة من العرب العاربة أو العرب المستعربة.

المؤرخ الدكتور أحمد سوسة علَّق على هذا الموضوع معنوناً: (سامية أم عربية؟)، فقال: «إن تسمية السَّامية أطلقت على الشعوب التي زعم أنها انحدرت من صلب سام بن نوح، وكان أول من أطلقها بهذا المعنى العالم النمساوي شلوتزر Schlotzer عام ١٧٨١ للميلاد،

---

(١) سفر التكوين، الإصحاح ١٠، من الفقرة (١ ـ ٣٢).

فشاعت منذ ذلك الحين وأصبحت عند علماء الغرب عَلَماً لهذه المجموعة من الشعوب، وسرت إلى المؤرخين العرب وباحثيهم بطريق الاقتباس والتقليد، على الرغم من أن هذه التسمية لا تستند إلى واقع تاريخي أو إلى أُسس علمية عنصرية صحيحة، أو وجهة نظر لغوية، إذ تعتبر أكثر ما تعتبر الحدود الجغرافية والعلاقات السياسية. فكَتَبةُ التوراة مثلاً حشروا في السَّامية شعوباً لا يعدُّها العلم الحديث من جماعة السَّامية، مثل: العيلاميين واللوديين، وأقصوا جماعة كان ينبغي إدخالها في زمرة الساميين، مثل: الفينيقيين والكنعانيين، مع أنهم كانوا يعلمون حقَّ العلم أن الكنعانيين هم الساميون العرب الأصليون سكان فلسطين الأوائل. ثمَ إن اصطلاح السَّامية يشير إلى نسب، لذلك ذهب بعض الباحثين إلى تخطئة تسمية السَّامية وتأكيدهم أن تسمية (العربية) هي أكثر تمشّياً مع الواقع التاريخي والعلمي، لأن اسم العرب ورد منذ القديم في الكتابات البابلية والآشورية، ثمَّ أطلق الفرس واليونان والرومان اسم العرب على سكان جزيرة العرب منذ الألف الأولى قبل الميلاد»[1].

إن النقاء العرقي أمر لا تُقرُّه الوقائع، حيث اختلطت الشعوب وتمازجت أنسابها وأعراقها، وبذلك يكون الكلام عن السَّامية مزاعم لا تثبت أمام المراجعة العلمية النقدية.

وإذا استعرض المتابع ما ورد في العهد القديم ـ مما سبق ذكره ـ يجد مغالطة كبيرة، لأنهم يدَّعون أن عابر أصل للسَّاميين، ونصُّهم يفيد أن عابر هو ابن شالح، وشالح هو ابن أرفكشاد، وأرفكشاد هو ابن سام.

---

(١) سوسة، د. أحمد، م. س، ص٣٢٨، ٣٢٩.

ويذكرون يقطان، أي: قحطان، على أنه ابن عابر، أي: بعد خمسة أجيال من سام. واليبوسيون فرع من الكنعانيين يذكرونهم قبلهم، ويحدِّدون مواقع انتشار للكنعانيين في منطقة فلسطين ولبنان والساحل المتوسطي، ومع ذلك يقولون: إنهم من ولد حام.

هذا التفاعل السكاني ـ الاجتماعي في المناطق المأهولة من العالم القديم وقلبها الجزيرة العربية، وبلاد وادي النيل، وبلاد ما بين النهرين أو بلاد الرافدين، وساحل المتوسط وبلاد الشام، ووصولاً إلى المغرب، كانت في حال من التفاعل، والأخذ والردِّ مع الشعوب الأخرى، وبذلك تبلورت شخصيات الأُمم على أساس اللغة والتاريخ والحضارة والجغرافيا، والإيمان الديني، ولم يعد الأمر مرتبطاً بإثنية، وهذا يفيد بأن تعبير (سامية) لم يعد سوى زعماً توراتياً لا يوجد شيء اجتماعي واقعي يؤيده.

إنَّ ما حوته التوراة كما خطَّها كتَّابها جانَبَ الحقيقة، والكلام عن خصائص سامية وسوى ذلك من التقسيمات للبشر لا يمتُّ إلى الواقع بصلة ولا أُسس علمية له.

حول هذا قال المؤرخ جواد علي: «والسّامية بعد، ليست رسّاً Race (إثنية) بالمعنى المفهوم من الرّسّ عند علماء الأحياء؛ أي: جنس له خصائص جسمية وملامح خاصَّة تميِّزه عن الأجناس البشرية الأخرى. فبين السَّاميين تمايز وتباين في الملامح والعلامات الفارقة، يجعل إطلاق الرّسّ عليهم بالمعنى العلمي الحديث المفهوم من علم الأجناس، أو الفروع العلمية الأخرى نوعاً من الإسراف واللَّغو»[1].

---

(١) علي، د. جواد، م. س، ج ١، ص ٢٢٥.

العـرب القدمـاء هـم سـكان أرض الأمة العربية، ولا شـيء اسـمه السَّـامية إلا في نصوص مزعومة وملتبسة في سفر التكوين، وبعد ذلك مع شلوتزر النمساوي عام ١٧٨١م.

قد أقرَّ بهذا الواقع المؤرخ سـبتينو موسكاتي، وبيَّن كيف أن أرض الجزيرة العربية قد اتصل أهلها وتفاعلوا مع بلاد الرافدين وبلاد الشام، فقال: «هذه المناطق الثلاث: بلاد العرب، وسـورية وفلسطين، وأرض الرافديـن، تؤلف معاً وحـدة جغرافية كانت في زمانها مسـرحاً لحدث هام في رواية الإنسانية. والشعوب التي أدَّت أدوار الممثلين في فصول هذه الرواية إنما أدَّت الأدوار التي لم يكن لها، بمقتضى أحوال الطبيعة مفـرٌّ مـن أدائها. فالفـروق التـي فرضتها العوامـل الجغرافيـة أدَّت إلى انبعـاث شـعوب تميَّـزت بعضها عن بعـض تاريخيـاً وسياسـياً، ولكن الوحدة الجغرافية الجوهرية جعلتها أجزاء لا يستقلُّ بعضها عن بعض، فكانت لكل حركة تنشأ في جزء منها آثار في الأجزاء الأخرى»[1].

وقال موسـكاتي: «وإلى الجنوب من ذلك اليمن، الذي يواجه جزء منه سـاحل إفريقية الأثيوبي، بينما يواجه سـائره المحيط الهندي. وهو أخصـب مناطق الجزيـرة العربية كلها، وقد سـمِّي قديمـاً: بلاد العرب السعيدة»[2]. ومن هذه الأرض كانت الهجرات باتجاه وادي النيل وبلاد المغـرب العربـي، وفـي كل الأحـوال النـاس هـم العـرب ولا وجود لمصطلح يدل على شعب سامي.

---

(١) موسكاتي، سبتينو، الحضارات السـامية، ترجمة د. السيد يعقوب، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة ١٩٩٧، ص ١١.

(٢) موسكاتي، سبتينو، م. س، ص ١٢.

إن المُحَقَّق وجوده هو أن اللغات التي انتشـرت في الأرض العربية وهي: الكنعانية، والآرامية، والسريانية وسواها؛ بينها تقارب في مخارج الحـروف، ومع الإشـارة أن التـوراة كُتبت قديمـاً بلغة آراميـة ملحونة تحوَّلـت مـع الزمـن إلى مـا يسـمونه العبريـة، وهـذا الوضـع اللغوي لا يعنـي سـاميَّة الشـعب، بـل آن الأوان لنقـول: عربـي وعربيـة بـدل مصطلح مزعوم هو السَّامية.[1]

(١) للتفصيل يراجع، د. أحمد سوسة، م. س، ص٣٢٨ وما بعدها.

الفصل الثاني

القومية والأمة في الإسلام

تمهيد:

إن إشكالية العلاقة بين الإسلام والعروبة إشكالية فرضتها مواقف فكرية في القرنين الأخيرين، حيث قامت دعوات للانسلاخ باسم الإسلام، ولم يقرّ أصحابها بالوطنية ولا بالرابطة القومية، متذرِّعين أن الانتماء للإسلام لا يكون معه أي انتماء آخر. وقامت بالمقابل دعوات للانتماء القومي والوطني تعتمد فكراً سياسياً لا دينياً Laïque علمانياً، وهذه الدعوات تنكَّرت للإيمان الديني وأزاحته جانباً، مما قدَّم مادة لمن قالوا بموقف إسلامي لا يقبل الوطنية والقومية.

لقد حصل بسبب هذا الغلو من قِبَل الفريقين ظلم للإسلام ومواقفه، وظلم للعروبة الحضارية وتجلياتها. وقد دفع ذلك العقلاء إلى موقف حائر حيال الفريقين وهم يقرأون في كتاب الله تعالى الآية الكريمة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴾ [الحجرات/ ١٣].

التنوُّع هو الأصل، فلقد فطر الله تعالى الناس على اختلاف الخِلقة والشكل، واختلاف الذكاء والمفاهيم، واختلاف الألسنة والانتماءات، هذه هي الحقيقة الربانية الخالدة، لقد بيَّنها قوله تعالى في الآية:

﴿ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ ﴾، والله تعالى الخالق لو شاء لجعل الناس جميعاً أمة واحدة، وشعباً واحداً، وقبيلة واحدة، لكن التنوع آية جاءت تؤكد قدرة الله تعالى المطلقة، فالناس وهم جميعاً مخلوقون من آدم وحوَّاء عليهما السلام تفرَّقوا في شعوب وقبائل وأُمم، وما كان ذلك ليكون لولا أن القدرة الإلهية قد أنجزته، ولولا أن المشيئة الإلهية هي التي أرادته.

ويكمل الخطاب الإلهي في بيان حقيقة التنوع وأنها آية وسُنَّة كونية إلهية في قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴾ [الروم/ ٢٢].

قال القرطبي في تفسير الآية: «اللسان في الفم، وفيه اختلاف اللغات من العربية والعجمية والتركية والرومية، واختلاف الألوان في الصور: من البياض والسواد والحمرة، فلا تكاد ترى أحداً إلا وأنت تفرِّق بينه وبين الآخر. وليس هذه الأشياء من فعل النطفة ولا من فعل الأبوين، فلا بد من فاعل، فعُلم أن الفاعل هو الله تعالى»[1].

وقال الطبرسي في تفسير الآية: «والألسنة اللغات أو أجناس المنطق وأشكاله. خالف سبحانه بين هذه الأشياء حتى لا يكاد يُسمع بين منطقين متَّفقين في شيء من صفات النطق وأحواله، وكذلك الصور وتخطيطها، والألوان وتنويعها، ولهذا الاختلاف وقع التعارف،

---

(١) القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد، الجامع لأحكام القرآن، ج٦، تحقيق أ. د. عبد الله المحسن التركي وآخرين، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط١، سنة (١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م)، ص٤١٣.

ولـو اتفقت وتشـاكلت لوقـع الالتباس، وفـي ذلك آية بيِّنـة في حكمة الصانع وكمال قدرته»[1].

هـذا التنوع يقود إلـى التعارف الذي ورد في قوله تعالى من سـورة الحجـرات (الآيـة): ﴿لِتَعَارَفُوٓاْ﴾؛ لأنَّ الأمم والشـعوب عندما تتعارف تسـتطيع أن تتصـل وتتواصل، وتسـتطيع أن تتبادل العلـوم والخبرات، والفنـون والصناعـات، وتسـتقر علاقاتهـا، فيثمـر ذلـك فضـاءً يؤمِّـن مقوِّمات السـعادة للإنسـان المسـتخلَف في الأرض، وإذا ذهب الناس شـعوباً وأمماً باتجاه التناقـض والتناكر فـإن ذلك يقودهم إلـى التنازع والعدوانية، فيسـهم ذلك في نشر الظلم والفسـاد، مما يسبب في شقاء الإنسان وعذاباته.

التنوع أمماً وشـعوباً، وعقائد ومعارف وذكاء، ولغات وقوميات هو الأصـل، ونكران ذلك إنمـا هو معاندة في مواجهة آيـات الله تعالى في خلقه وما فطر الناس عليه.

---

(١) الطبرسـي، الفضل بن الحسن، جوامع الجامع، ج ٢، بيروت، دار الأضواء، ط ١، سنة ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، ص ٢٨٠.

القوم والقومية والوطنية

القـوم هـم الجماعة من البشـر، قال ابـن منظور: «وقـوم كل رجل: شيعته وعشـيرته. وروي عن أبي العباس: النفر والقوم والرهط هؤلاء، معناهـم الجمـع، لا واحـد لهم مـن لفظهم للرجـال دون النسـاء..... وحكى ثعلـب: أن العرب تقـول: يا أيُّها القـوم، كفُّوا عنَّـا، وكُفَّ عنَّا، علـى اللفـظ وعلـى المعنى. وقـال مُـرَّةٌ: المخاطـب واحـد، والمعنى الجمع، والجمع أقوام»[1].

إن قـوم الإنسـان هـم مـن يشـتركون معه فـي خصائـص معينة من النسـب، أو اللغة، أو الدين، أو من ينتمون وإياه إلى شعب بعينه، لكن ليس شـرطاً أن يكون قوم أو أبناء قومية معينة؛ أي: رابطة تجمع قوماً، على ديـن وعقيدة واحـدة. يدل علـى ذلك قولـه تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف/ ٥٩]. وقـال تعالـى: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف/ ٦٠، ٦١].

نوح عليه السلام مرسـل من الله تعالى، وهو نبي اصطفاه الحقُّ سـبحانه، وقوم نوح ليسوا على عقيدة التوحيد، ولكنهم أبناء رابطته القومية من حيث الاجتماع البشـري، لغةً وثقافةً ومصيـراً وموقع إقامة، وقد جاء النـص القرآني يسـمِّي هؤلاء القوم من المشـركين: قوم نـوح، فلماذا يعـارض الرافضون للقومية القول بقومية عربية تجمع أبناء الأمة على تنوُّع عقائدهـم ومذاهبهم؟ وهذا يقال نفسـه على قوميات أخرى. ولو

---

(١) ابن منظور، لسان العرب، م٥، م. س، ص٣٧٨٦.

كان الإيمان بعقيدة واحدة هو شرط الرابطة المجتمعية بين الأقوام لما كان النص القرآني على أن هؤلاء الناس على شركهم وضلالهم قوم نوح.

ويأتي السياق القرآني بعد ذلك ليذكر أن هوداً عليه السلام قد بعثه الله تعالى إلى قومه، وسمّاه النصُّ القرآني (أخاهم)، فقال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف/ ٦٥-٦٧].

إنَّ القوم في عاد كفرةٌ وقد كذَّبوا الرسل، ولم يقبلوا دعوة هود عليه السَّلام، وقد أحاط بهم عذاب الله تعالى، وكانوا في نواحي حضرموت من اليمن، وبلادهم خصبة غنية بالبساتين والخضرة فجعلها الله تعالى مجدبة مقفرة، والتحق هود بمكة المكرمة مع من آمن، وبقي فيها إلى موته عليه السَّلام. رغم كفرهم وعنادهم واتهامهم لهود عليه السَّلام، جاء الخطاب الإلهي على أن هوداً هو أخوهم وأنهم قومه، وهذه بيِّنة من كتاب الله تعالى تأتي لتردَّ على بعض المتعصِّبين الذين ينكرون على شخص أن يُخاطِبَ بلفظة (أخ) من انتمى إلى غير ما هو عليه، وتردُّ على من يطالبون بالقومية الدينية، والقوم حسب ما ورد في هذه الآيات قد يكونون من عقائد شتَّى، تتراوح بين عقيدة التوحيد وبين نقيضها من الكفر أو الشِّرك.

وورد في سورة الأعراف كذلك: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا ۗ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ...﴾ الآية [الأعراف/ ٧٣]

وثمود بـن عاد أخـو جديس وكلهم مـن قبائل العرب القدمـاء، وثمود كان في رغد وسـعة من العيش فأفسـدوا وأشـركوا «وكانوا قوماً عُرْباً، وكان صالـح مـن أوسـطهم نسـباً، وأفضلهم حسـباً، فدعاهـم إلى الله تعالـى حتى شـمط (شـاب رأسـه) ولا يتبعـه إلا قليل مسـتضعفون... وكانت مسـاكن ثمود الحِجر بين الحجاز والشّـام إلـى وادي القرى... وسمِّيت ثمود لقلَّة مائها»[1].

ثمود الكافرة المفسـدة أتاها نبيٌّ منها هو صالح عليه السَّـلام، وهو أخوهم وهم قومه حسب النصِّ القرآني، فهل قرأ منكرو القومية هذا؟

لقـد تكررت النصوص القرآنيـة التي ورد فيها لفظ (قـوم) لمن بُعِث بينهم نبي مع أنهم مشـركون، أو كفرة، ومفسـدون وعصـاة. قال تعالى: ﴿ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَـٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَـٰتِ ۚ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [التوبة/ ٧٠].

السـؤال هنا إخباري يأتي مذكِّراً الناس لأخـذ العبرة، مما حلَّ بقوم نـوح وبعـاد وثمـود، وقـوم إبراهيـم، وقـوم شـعيب، وقـوم لـوط (المؤتفكات)، وهؤلاء قد تمرَّدوا وعاندوا، فحلَّ عليهم العذاب بسبب ما اقترفت أيديهم. ما يعنينا هنا هو أن هؤلاء رغم كل ما وقعوا فيه كان الخطاب بأنَّهم قوم أو أصحـاب، مما يؤكد تنوع المنتمين لقومية، وأن المؤمن والمهتدي قد يكون من قومه من هو غير مؤمن وضالٌّ.

وورد مثـل هذا النصّ الذي يصف النـاس بقوم مع أنهم عصاة، في

---

(١) القرطبي، م. س، ج ٩، ص ٢٦٦.

قوله تعالى: ﴿وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾ [هود/ ٨٩].

هذا الخطاب القرآني جاء بلسان النبي شعيب عليه السَّلام، وفي آية قبل هذه: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾. فالناس من أنسباء كل نبي إنما هم إخوته أو قومه، وهذا مثله كثير في نصوص القرآن الكريم.

ومن القوم أتت مفردة: القومية. «قومية: حالة اجتماعية عاطفية تنشأ من الاشتراك في الوطن واللغة»(١).

وقال الداعية المرحوم محمد الغزالي: «فالقومية هي إذن الواقع التاريخي واللغوي والثقافي والجغرافي العام لقوم من الأقوام»(٢).

وإذا تعلَّق الأمر بالعرب فإن القومية العربية تكون مسألة إقرار والتزام بأن الشعب العربي المقيم في الوطن العربي بامتداده إنما هو شعب واحد تجمعه اللغة والثقافة والتاريخ والجغرافيا، والقومية العربية ليست رابطة عرقية، أو رابطة بين أنسباء أو أقرباء بوحدة الدم، وإنما هي إطار حضاري اجتماعي يجمع من انصهروا في هذه الرابطة منذ مئات السنين، وبذلك يسقط زعم السَّامية المقتبس من العهد القديم، وفي سفر التكوين حصراً كما خطَّته أيدي الكتبة الذين حرَّفوا الكلم عن مواضعه، وقد بيَّن المرحوم الأستاذ الدكتور محمد المبارك

---

(١) المعجم العربي الأساسي، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس، سنة ١٩٨٨م، ص ١٠١٦.

(٢) الغزالي، الشيخ محمد، حقيقة القومية العربية، القاهرة، دار نهضة مصر، سنة ١٩٩٨م، ص ١٩.

نشوء القومية وتحديدها فقال: «تتفاعل أجزاء الشَّعب الواحد أو القومية الواحدة خلال عصور التاريخ بسبب الاشتراك في الارض والأصل واللغة والمصالح والتاريخ والمعتقدات والعادات، وكلما كانت عوامل الاشتراك هذه أكثر شمولاً وامتداداً وأعمق وأقوى وأدوم على الزَّمن، كان ارتباط أبناء الشَّعب وتضامنهم أقوى، وكان ظهور هذه القومية بمظهر الجسم الواحد ذي الحياة الواحدة أجلى وأوضح»[1].

وقال محدداً القومية: «القومية هي هذا المجتمع القومي بجميع عناصره المادِّيّة والمعنوية من أرض ولغة ومعتقدات ومفاهيم وأخلاق وثقافة وحضارة في حاضره وماضيه. فالقوم هم أفراد البشر الذين تجمعهم هذه الروابط كلّها، أما القومية فهي القوم مع جميع العوامل الحيّة المشتركة فيما بينهم والتي جمعت بينهم المادية منها والمعنوية على تعاقب العصور وتوالي الأجيال»[2].

لقد أجاب العلَّامة محمد المبارك على سؤال القوم والقومية، وبيَّن عوامل تكوين الشخصية القومية في الأمم، وانطلق في الأمر من القوم، مستفيداً مما ورد في النصوص القرآنية من أن قوم الإنسان ليس شرطاً أن يكونوا على دينه، لأن مقومات الشخصية القومية تتوافر في أمة فتربط بين أبنائها وإن تنوعت عقائدهم.

إن الانتماء للقوم ينتج من الانتماء لوطن وقومية، وهذا الانتماء فيه

---

(١) المبارك، أ. د. محمد، الأمّة والعوامل المكونة لها، بيروت، دار الفكر، ط ٣، سنة ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م، ص ٢٨.

(٢) المبارك، أ. د. محمد، م. س، ص ٣١.

عوامل من النشأة، فالإنسان في أصل شخصيته ومكوناتها الذهنية والنفسية الوجدانية يتعلَّق بأرض مولده وترعرعه، ويتعلَّق بمنظومة قيمية تسود في موطنه، وتسهم في تكوين شخصيته. وفكرة الانسلاخ عن الوطن والقومية تنافي طبيعة الإنسان ونظرته ومكتسباته المعرفية الفكرية.

وقد تحدث عن هذا المسعودي، فقال: «وقد ذكر الحكماء ـ فيما خرجنا إليه من هذا المعنى ـ أنَّ من علامة وفاء المرء ودوام عهده حنينه إلى إخوانه، وشوقه إلى أوطانه، وبكاءه على ما مضى من زمانه، وأن من علامة الرشد أن تكون النفوس إلى مولدها مشتاقة، وإلى مسقط رأسها توّاقة، وللإلف والعادة قطع الرجل نفسه لصلة وطنه.

وقال ابن الزبير: ليس النّاس بشيء من أقسام أقنع منهم بأوطانهم، وقال بعض حكماء العرب: **عمَّر الله البلدان بحب الأوطان**»[1].

إن التعلُّق بالوطن لا يُستثنى منه أحد، والبيان الأكثر وضوحاً في هذا الباب ما كان من الرسول ﷺ يوم الهجرة حين اضطر إلى مغادرة موطنه ومدينته مكة المكرمة، وفي هذا الموقف تحركت مشاعر وأفكار، وبرز الحنين إلى بلد المولد والنشأة والحديث: «حدثنا محمد بن موسى البصري، حدثنا الفضيل بن سليمان عن عبد الله بن عثمان بن خيثم حدثنا سعيد بن جبير وأبو الطفيل عن ابن عباس قال: قال رسول الله تعالى ﷺ لمكة: (**ما أطيبك من بلد وأحبَّك إليَّ، ولولا أن قومي أخرجوني منك ما سكنت غيرك**)»[2].

---

(١) المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين، م. س، ج ٢، ص ٦٦.

(٢) أخرجه الترمذي في السنن، كتاب المناقب، باب في فضل مكة. وأخرجه البيهقي =

هذه هي المشاعر الوطنية تفعل فعلها في كل إنسان، وقد تكون في حالة مكة المكرمة أكبر بسبب فضائل مكة المكرمة ومكانتها. وقد ذهب المرحوم الشيخ محمد الغزالي هذا المذهب، حيث قال: «والبشر يألفون أرضهم على ما بها، ولو كانت قفراً مستوحشاً، **وحب الوطن غريزة متأصّلة في النفوس، تجعل الإنسان يستريح إلى البقاء فيه**، ويحنُّ إليه إذا غاب عنه، ويدفع عنه إذا هوجم، ويغضب له إذا انتُقص»[1].

الانتماء للوطن وللأمة يولِّد نزعة قومية تشدُّ الإنسان إلى ترابه الوطني، وإلى قومه الذين تربطه بهم وشائج، هي مقومات الشخصية القومية الحضارية، ولا يوجد إنسان بلا وطن وقومية ينتمي إليهما، ويرتبط بهما حيثما حلَّت ركائبه، فالحنين يجذبه إلى المنزل الأول، والموطن الأصلي، وهذا الانتماء يتشكل من خلال شبكة علاقات اجتماعية، ولا معنى له إن كان فردياً.

وقد قال ساطع الحصري في الارتباط بين الوطنية والقومية: «إن الوطنية والقومية من النزعات الاجتماعية، ويجب أن نلاحظ فوق ذلك، أن كل واحدة منهما ـ مثل سائر النزعات النفسية ـ تولِّد بعض العواطف، وتؤدي إلى بعض الأفعال: إنها تولِّد في نفوس الأفراد بعض العواطف، وتحملهم على القيام ببعض الأعمال.

= في (شعب الإيمان)، باب المناسك، ونصه: «**ما أطيبك من بلد وأحبّك إليّ ولولا أن قومك أخرجوني ما سكنت غيرك**». وصيغة الحديث نفسها أخرجها ابن عبد الله الحاكم النيسابوري في (المستدرك على الصحيحين).

(١) الغزالي، الشيخ محمد، م. س، ص٨٦.

إن الإنسان يحبُّ أمته ـ تحت تأثير النزعة القومية ـ ويشعر نحوها بارتباط قلبي شديد، ويعتبر نفسه جزءاً منها، فيفرح لكل ما يزيد مجدها، ويتألَّم من كل ما يقلِّل قوَّتها. إنه يصبو إلى رؤيتها قوية وناهضة، يفتخر بأمجادها، ويتألم لمصائبها، وينزع إلى عمل كل ما يستطيع عمله للدفاع عن كيانها وعن كرامتها.

كما أن الإنسان يحب وطنه ـ تحت تأثير النزعة الوطنية ـ فيشعر نحوه بتعلُّق قلبي عميق، فيفرح لسعادته، ويتفجَّع عند نكبته، ويسعى لخدمته، حتى أنه لا يتأخر عن التضحية في سبيله، إذا اقتضى الحال»[1].

حب الوطن، وتعلُّق الإنسان بقومه وقوميته ليسا من الأمور المصطنعة، بل إن ذلك نزعة أصيلة في كل إنسان سوي، ولا يكون خارج هذه الحالة الشعورية السامية إلا من فقد الأهلية، أو من ضعفت إرادته، وتمَّ إغراؤه بمكاسب فردية رخيصة، وإذا به يسلك طريق العمالة والارتهان لأجنبي، أو لعدو على حساب وطنه وقوميته.

وبالنسبة للأمة العربية فإن الشعور القومي في أهلها لا أساس فيه لما هو إثني (عرقي، أو طائفي) تعصُّبي، ولا مكان في العروبة للاستعلاء على الأُمم والشعوب الأخرى، والعروبة التي تتميز بخصائص ومكونات ثقافية وحضارية تقبل في إطار الانتماء إليها كل مستعرب لغة وثقافة وحضارة، أيًّا كانت أصوله السكانية.

تأسيساً على ما تقدَّم كان «من الأغلاط الشائعة في نظرنا الابتعاد

---

(١) الحصري، ساطع، أبحاث مختارة في القومية العربية، ج ١، بيروت، دار القدس، بدون تاريخ، ص ٣٢.

لدى بعضهم عن المدلول الحضاري للقومية العربية، وربطها بالمدلول العرقي الخالص. ذلـك أن المدلول العرقي لا يمكـن الإتيان بالبرهان الصـادق على صحتـه في خصوص الأفـراد أو الجماعـات، وهذا لأن العـرب اختلطـوا بغيرهم من شـعوب الأرض على امتـداد التاريخ من ناحية، ومـن ناحية أخرى فـإن القومية المبنيـة على النظـرة العرقية قد ساعدت بعض الشـعوب على تحقيق الوحدة في ظرف تاريخي معيَّن، كما حدث لدى الألمان والإيطاليين خـلال القرن الماضي، ولكنها قد قادتهما في القرن العشرين إلى النازية والفاشية، اللّتين أضرَّت بهما كل الضَّرر؛ وبالإنسانية كذلك.

إن القومية العربية بالمعنى الحضاري تتسـع ولا تضيق، فهي تتلاءم مـع الفتـرة التاريخيـة التي تجتازهـا الأمـة العربية حاضـراً، ويجب أن تسـتهدف عمليـاً تحقيـق آمـال العرب مسـتقبلاً فـي الوحـدة والحرية والعدالة الاجتماعية»[1].

هـذا التأكيـد مرة بعـد أخرى في سـياق هـذا الكتاب مسـوِّغه تلك الأحكام المتسرِّعة، والمواقف المتشنجة التي يتخذها بعض المنفعلين، وأصحـاب الأهواء المخاصميـن للعروبة، وكأنَّها شـعوبية جديدة تطلُّ برأسـها مبديةً غيرةً على الإسـلام، علماً أن الإسـلام ديـن، وهو رابطة عقدية بين أتباعه، وهـو رابطة لمنتمين لدين تختلف عن رابطة العروبة

---

(١) زباديـة، د. عبـد القـادر، دور الإسـلام والعربيـة لغة وثقافـة في تكويـن مقومات القومية العربية وفي بعث الوعي القومي العربي.
فـي: القومية العربية والإسـلام، بحوث ومناقشـة ندوة القومية العربية والإسـلام، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ط ١، سنة ١٩٨١، ص ١١٤.

التي هي رابطة حضارية ـ اجتماعية لها مقوِّماتها وخصائصها، وتضمُّ مسلمين وغير مسلمين.

لقد سجَّل أ. د. أحمد كمال أبو المجد استغرابه لافتعال مشكلة بين الإسلام والعروبة لا أساس لها، وقد قال بشأن ذلك: «أما الإسلام، فإن وضعه في كفَّة الميزان مقابل القومية أمر غريب حقًّا. فالقومية انتماء لجماعة، والإسلام عقيدة دينية شمولية مستوعبة للحياة، بما تنطوي عليه من أحكام ومبادئ وتكاليف. إن القومية العربية تعبير عن وجود being، والإسلام تعبير عن وجوب oughtness، ومن هنا فإن الحديث عن توافق القومية والإسلام أو تناقضهما حديث لا معنى له أصلاً، ولكن حماس الجماهير، وتأثير النخبة المثقفة، وسياط الإعلام تغرس في الفكر الإنساني أموراً تنكرها العقول حين تتحرر من هذه التأثيرات»[1].

إنه تمييز في المصطلح لا بدَّ منه من أجل وقف حالة اللَّبس التي أشاعها بعضهم، مما أحدث تشويشاً بشأن العلاقة بين الإسلام والعروبة، وهذا الكتاب في كل محتوياته إنما جاء يعالج ذلك.

---

(١) أبو المجد، أ. د. أحمد كمال، نحو صيغة جديدة للعلاقة بين القومية العربية والإسلام. في: القومية العربية والإسلام، بحوث ندوة، م. س، ص٥٢٦.

الأُمَّة في النص القرآني

إن مفردة (أُمَّة) من الكلمات التي كان تحت غطائها حجم كبير من اللَّبس الذي أراده باعثو الشعوبية المعاصرة، الذين قامت دعواتهم على مفهوم يفصل بين الإسلام والعروبة باسم الإسلام حيناً، وباسم القومية العربية حيناً آخر، وهذا الأمر أوجد فصائل تتحزَّب باسم الإسلام وتعادي العروبة، وأخرى تطرح فكراً قومياً لا دينياً تتنكر فيه لفضل الإسلام ودوره في التكوين التاريخي للأمة العربية. لذلك كان من الضروري بيان تحديد «الأُمَّة» لغة وفي النص القرآني، وفي مصطلح علم الاجتماع السياسي.

ورد في «لسان العرب»: «الإمَّة: الحالة، والإمة والأُمَّة: الشرعة والدِّين»[1]. «والإمَّة: لغة في الأُمَّة: وهي الطريقة والدّين. والإمَّة، النِّعمة،.. والإمَّة أيضاً: الحال والشأن. وقال ابن الأعرابي: الإمّة: غضارة العيش والنّعمة»[2]. «والأمَّة: القرن من النَّاس؛ يقال: قد مضت أمم، أي قرون، وأمّة كل نبي: من أُرسِل إليهم من كافر ومؤمن. الليث: كل قوم نسبوا إلى نبي فأضيفوا إليه فهم أمَّته، وقيل: أمة محمد صلَّى الله تعالى عليه وسلَّم، كلٌّ من أُرسِل إليه ممن آمن به أو كفر، قال: وكل جيل من الناس هم أمَّة على حدة. وقال غيره: كل جنس من الحيوان غير بني آدم أمة على حدة، والأمَّة: الجيل والجنس من كل حيٍّ».[3] «جاء رجل فسأل عن الأمَّة، فقال: معلِّم الخير، والأمة

---

(١) ابن منظور، م. س، م ١، ص ١٣٢.

(٢) ابن منظور، م.س، م ١، ص ١٣٣.

(٣) ابن منظور، م. س، م ١، ص ١٣٤.

المعلم... وقال ابن القطّاع: الأمـة الملك، والأمة أتباع الأنبياء، والأمّة الرجـل الجامع للخيـر،.. والأمـة الرجل المنفـرد بدينه لا يشـركه فيه أحد، والأمة القامة والوجه»[1].

والمعاجم الأخرى لم تبعد عن هذا التحديد، وبذلك تكون الأمة علـى معاني متعـددة ومتنوعـة اسـتناداً إلى السـياق الإنشـائي، وبناء للتراكيب اللغوية وما تنتجه من نصوص. لكن الدلالة الدقيقة لمفردة (أمة) تسـتفاد من النص القرآني، حيـث ورد في ٦٤ آية كريمة، وهي بالمفـرد أو بصيغـة الجمـع. أمـا توزيعها حسـب المعانـي فهو على الوجه الآتي:

١ ـ الأُمَّـة: الحين أو الزمن: قال تعالى: ﴿ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ ۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ [هود/ ٨]. وقـال تعالـى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴾ [يوسف/ ٤٥].

قـال القرطبي: «ومعنـى (إلى أمـة): إلى أجـلٍ معدود، وحيـن معلومٍ، فالأمَّـة هنا: المـدة؛ قاله ابن عبـاس ومجاهد وقتادة وجمهور المفسِّـرين، وأصـل الأمة: الجماعة؛ فعبَّر عن الحين والسِّـنين بالأمة، لأن الأمة تكون فيهـا.»[2] وورد عنده في تفسـير الآية الثانية من سـورة يوسـف: «﴿وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ أي: بعد حين؛ عن ابن عباس وغيره. ومنه ﴿إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ﴾ وأصلـه: الجملـة مـن الحيـن. وقـال ابـن درسـتويه (عبد الله بن جعفـر،

---

(١) ابن منظور، م. س، م١، ص١٣٥.

(٢) القرطبي، م. س، ج ١١، ص٧٧.

ت ٣٤٧ هـ): والأمة لا تكون الحين إلا على حذف مضاف، وإقامة المضاف إليه مقامه، كأنه قال ـ والله أعلم ـ وادَّكر بعد حين أمَّة، أو بعد زمن أمة، وما أشبه ذلك، **والأمّة: الجماعة الكثيرة من الناس**»[1].

وقال ابن عطية الأندلسي في الآية الأولى من سورة هود: «الأمة في هذه الآية: المدَّة. كما قال: (وادّكر بعد أمة) قال الطبري: سمِّيت بذلك المدَّة لأنها تمضي فيها أمة من النَّاس وتحدث فيها أخرى. فهي على هذه المدة الطويلة.»[2]. يلاحظ من هذا المعنى لمفردة (أمة) أنه رغم استخدامها للدلالة على المدة والحين زمنياً، إلا أنَّها مرتبطة بالمعنى الأصلي الذي هو: الجماعة من الناس.

٢ ـ الأُمَّة: الدين والملَّة، وهنا تكون الجماعة البشرية التي سمِّيت أمة قد التقت بخصائص تميّزها، وهي العقيدة والدين. قال تعالى: ﴿ بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴾ [الزخرف/ ٢٢]. وقال تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾ [الزخرف/ ٢٣].

قال القرطبي في تفسير الأمة في هاتين الآيتين: «(على أمة) أي: على طريقة ومذهب؛ قاله عمر بن عبد العزيز، وكان يقرأ هو ومجاهد وقتادة: (على إمَّة) بكسر الألف. والإمّة: الطريقة.... والإمّة أيضاً لغة في الأمة، وهي: الطريقة والدين.... وقال قتادة وعطيّة: (على إمّة):

---

(١) القرطبي، م. س، ج ١١، ص ٣٦٣، ٣٦٤.

(٢) ابن عطية الأندلسي، عبد الحق بن غالب، المحرر الوجيز، ج ٩، الرباط، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، سنة ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٢م، ص ١١١.

على ديـن.... قـال الجوهـري: والأمّـة: الطريقـة والدين، يقـال: فلان لا أمّة له، أي: لا دين له ولا نِحْلة»[1].

ولا يبعـد عـن هـذه الدلالة وهـذا المعنى ما جـاء في قولـه تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء/ ٩٢].

وقولـه تعالـى: ﴿ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴾ [المؤمنون/ ٥٢]. وفي تفسير القرطبي: «لما ذكر الأنبياء، قال: هؤلاء كلُّهم مجتمعون علـى التوحيد، فالأمة هنـا بمعنى الدين الذي هو الإسـلام؛ قاله ابن عباس ومجاهد وغيرهما، فأما المشركون فقد خالفوا الكلَّ... أي: هـذه أمتكـم ما دامـت أمة واحـدة واجتمعتـم على التوحيـد، فإذا تفرَّقتم وخالفتم فليس من خالف الحقَّ من جملة أهل الدين الحقِّ»[2].

إن المجموعـة الأولـى التـي عانـدت متمسـكة بالمـوروث الديني والفكري، وأبت أن تُعمل العقل الذي هو نعمة تبيِّن مخاطر التقليد بلا دراية ولا تعقُّل، وهذا يخالف المبدأ القائل: التفكير فريضة.

أما المجموعة الثانية التي تتخذ من الآيتين الكريمتين ذريعة لرفض إقامـة الكيانـات الوطنيـة، وإمضـاء التكوينـات القومية العربيـة أو غير العربية، وبعدها تتمرد على الصيغ الدستورية، علماً أن الآيتين تتحدثان عن الأمـة هنا بمعنـى الدين، وبهـذا يكـون كل المنتمين إلـى دين أمة واحدة لجهة الرابطة العقدية، وهذه الرابطة إنما هي شـيء غير الرابطة القوميـة العربية أو أية رابطة قومية أخرى. وهذا الأسـلوب من التعامل

---

(١) القرطبي، م. س، ج ١٩، ص ٢٤.

(٢) القرطبي، م. س، ج ١٤، ص ٢٨٣.

مـع دلالات النصـوص هـو الـذي أحـدث ولا يـزال البلبلـة الفكرية، والتشويش الذهني.

٣ ـ الأُمَّة: الإنسـان القدوة. لقد اسـتخدم العرب مفـردة (أُمَّة) لكل إنسان جامع للخير، وملتزم الفضائل، وسالك وفق منظومة قِيَم فاضلة، وهـذا ما جاء به النصُّ القرآني بشـأن إبراهيم ﷺ. قـال تعالى: ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [النحل/ ١٢٠].

قـال صاحب تفسـير «الجواهـر الحسـان في تفسـير القـرآن»: «لما كشـف الله فعل يهود وتحكُّمهم في شـرعهم بذكر ما حرَّم عليهم، أراد أن يبيِّن بعدهم عن شـرع إبراهيم ﷺ، والأمة في اللغة: لفظة مشتركة تقع للحين وللجمع الكثيـر وللرجل المنفرد بطريقة وحده، وعلى هذا الوجه سـمِّي إبراهيم ﷺ أمّة، قال مجاهد: سـمِّي إبراهيم أمَّة لانفراده بالإيمـان في وقتـه مدةً مـا. وفي البخـاري أنه قـال لسـارة: ليس على الأرض اليـوم مؤمـن غيري وغيـرك. وفي البخـاري قال ابن مسـعود: الأمـة: معلِّم الخيـر، والقانت: المطيـع الدائم على العبـادة، والحنيف: المائل إلى الخير والصلاح»[1].

إن إبراهيـم ﷺ دعـا قومـه ومـن حولـه إلـى عقيـدة التوحيـد فعصوا وتمسكوا بضلالاتهم وشركهم، وبذلك انفرد إبراهيم بالعقيدة ودين الحقِّ، وواظـب على التعليم والدعوة إلى الهدى فاسـتحق أن يكـون أمة بمفرده، لأنـه يحمـل الدعـوة والهـدى، ولأن دعوته فيهـا الخير لأمـة، لا بل لأمم شتى. واقتداءً بإبراهيم ﷺ يصح إطلاق لفظ أمة على كل مؤمن كان عنده

---

(١) الثعالبي، الشـيخ سـيدي عبد الرحمن، الجواهر الحسان في تفسـير القرآن، ج ٢، تحقيق أ. د. عمار الطالبي، الجزائر، وزارة الثقافة، سنة ٢٠٠٧م، ص ٤٥١.

يقين ثابت وإيمان راسخ. «قال ابن وهب وابن القاسم عن مالك، قال: بلغني أن عبد الله بن مسعود قال: يرحم الله معاذاً، كان أمة قانتاً. فقيل له: يا أبا عبد الرحمن، إنما ذكر الله ﷻ بهذا إبراهيم عليه السلام. فقال ابن مسعود: **إن الأمة الذي يعلِّم الناس الخير**، وإن القانت هو المطيع»[1].

وقد ورد ذلك في حلية الأولياء: «قال ابن مسعود رضي الله عنه: إن معاذ بن جبل رضي الله عنه كان أمة قانتاً لله حنيفاً، فقيل: إن إبراهيم كان أمة قانتاً لله حنيفاً. فقال: ما نسيت، قل: تدري ما الأمة وما القانت؟ فقلت: الله أعلم. فقال: الأُمَّة الذي يعلِّم الخير، والقانت: المطيع لله وللرسول، وكان معاذ يعلِّم الناس الخير ومطيعاً لله ولرسوله»[2].

٤ ـ الأُمَّة: الجماعة من جنس معين، وهذا ينطبق على كل المخلوقات، ومنها الإنسان، فيكون الجماعة الكثيرة من البشر أمة. وأهل أمة من جمعتهم خصائص وسمات يتميَّزون بها عن غيرهم، لذلك كان العالم أمماً، وهذه هي سنَّة الله تعالى في خلقه.

وإذا كان البشر مختلفي اللسان والتاريخ والخصائص الحضارية والمكانية، وقد تكوَّنت منهم الأمم، فإن كل الكائنات الحيَّة من إنسان وحيوان قد توزعت في أمم حسب أجناسها. قال تعالى: ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾ [الأنعام/ ٣٨].

---

(١) القرطبي، م. س، ج ١٢، ص ٤٥٧.

(٢) الأصفهاني، أبو نعيم، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، م ١، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، بيروت، دار الكتب العلمية، ط ٢، سنة ١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٢م، ص ٢٩٣.

إن تلمُّس معنى هذه الآية يفيد أن الحيوانات والطيور تولد وتموت، ولها طرق في المعاش، وسبل إلى جني الرزق، ولها أسماء وتنتظم في جماعات قطعاناً وأسراباً هي أممهم، كما ينتظم الناس في أمم حسب خصائص كل أمة.

وجاء من الإيات في أن الأمة هي الجماعة البشرية التي تشترك في سمات معينة، قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴾ [القصص/ ٢٣].

والأمة في هذه الآية هي الجماعة الكثيرة من البشر التي تشترك في سمة هي أنهم جميعاً يقودون غنمهم ليسقوها من مدين. إن موسى عليه السلام عندما ورد ماء مدين، وهم القوم الذين بُعث إليهم النبي شعيب عليه السلام، وجد عند الماء (أُمَّة) أي: جماعة بشرية، وهذا المعنى للأمة هو الغالب.

وفي سورة البقرة قوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [البقرة/ ١٢٨]. الآية جاءت بلسان إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، وهما يدعوان الله تعالى أن يجعل من نسلهم أمة (جماعة بشرية كثيرة العدد) تكمل مسار الدعوة إلى التوحيد. والأصل أن الأمم ليست واحدة في مكونات شخصيتها، وعناصر وحدتها، وسماتها التي تجعلها مختلفة عن أمة أخرى، والأمم في تعاقب أو يعاصر بعضها بعضاً. قال تعالى: ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [البقرة/ ١٣٤].

وقد تكون الأمة جماعة بشرية لها مهمّة معينة فيقال لها: أمّة، وفي قوله تعالى بيان لذلك، في الآية: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران/ ١٠٤].

والبيان القرآني بهذه الدلالة ورد بشأن أتباع رسالة موسى عليه السلام، في قوله تعالى: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴾ [الأعراف/ ١٥٩].

إن كل جماعة بشرية تجمعها مقومات وخصائص يمكن أن تسمى أمّة. فالعرب الذين لهم تكوين تاريخي ولغوي وحضاري واجتماعي وإقامة في أرض متصلة يسمُّون أمة، وهذا ينطبق على الفرنسيين والفرس والترك وسواهم، كما أنه يمكن أن يقال: أمة العلماء، وأمة الأطباء، وأمة الأدباء... إلخ.

عند هذا التحديد لمفردة (أمة) تلتقي الأمة تكويناً مع القومية نزعة تشدُّ أبناء الأمة إلى أمتهم، وإلى قومهم الذين ينتمون وإياهم إلى أمة لها خصائصها ومقومات شخصيتها. ولهذا مضت سنَّة الله تعالى في البشر، فكانوا شعوباً وقبائل، واختلفت ألوانهم وألسنتهم. لقد قال المصلح الثائر عبد الحميد بن باديس الجزائري (ت ١٩٤٠م): «تختلف الشعوب بمقوماتها ومميّزاتها كما تختلف الأفراد. ولا بقاء لشعب إلا ببقاء مقوماته ومميّزاته كالشأن في الأفراد. فالجنسية القومية هي مجموع تلك المقومات وتلك المميّزات. وهذه المقومات والمميّزات هي اللُّغة التي يُعرب بها ويتأدب بآدابها، والعقيدة التي يبني حياته على أساسها، والذكريات التاريخية التي يعيش عليها وينظر لمستقبله من

خلالها، والشعور المشترك بينه وبين من يشاركه في هذه المقومات والمميّزات»[1].

إن نصوص القرآن الكريم جاءت تبلغنا عن الأمم المتعددة المختلفة بخصائصها، وعن تلك التي تتعاقب في الزمن، أو التي تكون في زمن واحد وأماكن متعددة، أو تلك التي تتوزع بين قوم صالحين وآخرين فاسدين ومفسدين، ولم يطلب النصُّ القرآني من الناس أن يكونوا أمة واحدة، كما أن التنوّع كان مشيئة إلهية علويَّة لا علاقة للبشر بها. وممن تحدثوا في هذا الأمر المفكر الدكتور عصمت سيف الدولة الذي قال: «تطلق كلمة الأمة على الجماعة التي تميَّزت بأنها صالحة، كما تطلق على الجماعة التي تميَّزت بأنها غير صالحة، فتعرف من الآية أن الجماعة تكون أمة متى اشترك أفرادها فيما يميِّزهم عن غيرهم، بصرف النظر عن مضمون هذا المُميِّز. على هذا الأساس كان الناس أمة بما تميَّزوا به من كونهم ناساً، تميَّزوا عن أمة الجنِّ، وعن أمة من الحيوان. ولما كانت المميزات متعددة فإن الأمم متعددة بدون تشابه أو تعارض أو تناقض، وإن اشتركت جميعاً في أنها جماعات متميّزة»[2].

إن تنوُّع الناس اجتماعياً وانتظامهم في أمم وقوميات سنَّة أبلغت

(١) ابن باديس، الشيخ عبد الحميد، ابن باديس: حياته وآثاره، ج ٣، جمع ودراسة د. عمار الطالبي، الجزائر، الشركة الجزائرية، ط ٣، سنة ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٧م، ص ٣٥٢.

(٢) سيف الدولة، د. عصمت، عن العروبة والإسلام، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ط ١، سنة ١٩٨٦، ص ٣٠.

عنهـا الآيـة الكريمـة: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [الحجرات/ ١٣]. وعن تنوع الناس في إيمانهـم وعقيدتهم وما يدينون به جـاء البـلاغ الإلهـي فـي قولـه تعالـى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّـٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [الحج/ ١٧].

ولـم يكن مطلوباً في الإسـلام أن يكون للناس انتماء واحداً ولا في طريقـة واحدة، ولا بخصائص واحدة، ولا هـو مطلوب أن ينتظموا في أمـة واحـدة. قـال تعالـى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴾ [هود/ ١١٨].

الفصل الثالث

العربية والعروبة في النصّ الإسلامي

تمهيد

ينطلق من يجحدون العروبة من مفاهيم مغلوطة ألحقوها بكل نصٍّ يتعلَّق بالعربية وبالعرب وبالعروبة. وقد ميَّز القدامى بين عربي وأعرابي؛ وبينوا أن الأعرابي هو من يحيا حياة بدوية، ومن كان مقيماً في المدن والقرى والحواضر يسمى عربي. إلا أن هذا التقسيم لا حضور له حالياً؛ لأنه لم تعد هناك بدوية وأهلها أعراب كما كانت الحال قديماً.

وهناك إشارة لحالة الارتباط بين الإسلام في أصل دعوته وبين العربية والعرب أوردها ابن منظور حيث قال: «قال الأزهري: وجعل الله ﷻ، القرآن المُنْزَل على النبي، الصلاة والسلام عليه، عربياً، لأن نسبه إلى العرب الذين أنزله بلسانهم، وهم النبي والمهاجرون والأنصار الذين صيغة لسانهم لغة العرب؛ في باديتها وقراها العربية؛ وجعل النبي ﷺ عربياً لأنه من صريح العرب»[1].

والقرآن الكريم بلاغ إلهي أنزل وحياً على الرسول صلوات الله

(١) ابن منظور، م. س، م ٤، ص ٢٨٦٥.

تعالى عليه، وهو باللسان العربي، والنص القرآني إعجاز بياني لم ولن يستطيع بشر أن يأتي بمثله، وكل المشكلة إذا ضعفت العربية، وتقدمت العجمة على حسابها فإن ذلك سيرتد سلباً على ضبط النصوص، ويترتب على ذلك مفاهيم خاطئة تؤدي إلى ما لا تحمد عقباه.

يكفي أن يرد في هذا السياق حدث جرى زمن الخليفة الفاروق رضي الله عنه. والحدث كما ورد عند القرطبي: «عن ابن أبي مُليكة قال: قدم أعرابي في زمان عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقال: من يُقرئني مما أُنزل على محمد عليه الصلاة والسلام؟ قال: فأقرأه رجل (براءة). فقال: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ﴾ [التوبة/ ٣] بالجر، فقال الأعرابي: أَوَقَد بَرِئَ الله تعالى من رسوله؟ فإن يكن الله بريء من رسوله فأنا أبرأ منه، فبلغ عمر مقالة الأعرابي، فدعاه، فقال: يا أعرابي، أتبرأ من رسول الله صلى الله تعالى عليه؟ فقال: يا أمير المؤمنين، إنِّي قدمت المدينة، ولا علم لي بالقرآن، فسألت: من يقرئني؟ فأقرأني هذا سورة (براءة) فقال: (أن الله بريء من المشركين ورسولِهِ)، فقلت: أَوَ قد بريء الله من رسوله؟ إن يكن الله بريء من رسوله، فأنا أبرأ منه، فقال عمر: ليس هكذا يا أعرابي، قال: فكيف هي يا أمير المؤمنين؟ قال: أنّ الله بريءٌ من المشركين ورسولُه) بضمٍّ على اللّام، فقال الأعرابي: وأنا والله أبرأ مما بريء الله ورسوله منه، فأمر عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ألا يُقريء الناس إلا عالم باللغة»[1]. وكان بعد ذلك العمل من أجل وضع علم النحو.

هذه الواقعة التي غيَّرت دلالة المعنى في الآية (٣) من سورة التوبة

---

(١) القرطبي، م. س، ج ١، ص ٤٣.

بخطأ في حركة لا أكثر؛ يأتي ليقول بأن العربية ضرورة لقراءة النص القرآني بشكل سليم، فعندما قرأ رجل الآية، ووضع كسرة الجر تحت (لام) (ورسوله) يكون قد زوَّر دلالة المعنى في الآية، ويكون قد كفر لأنه اتَّهم الرسول بأنه في صفّ المشركين والعياذ بالله تعالى، والصحيح أن يكون على اللام علامة الرفع (الضمَّة)، وتكون الدلالة هي: إن الله بريء من المشركين ورسولُه (بريء منهم)، ورسولُ تكون مبتدأ لخبر مضمر في الجملة الاسمية السابقة. وتصحُّ القراءة بوضع (الفتحة) علامة النص على اللام، فيقال: (ورسولَه)، وعندها تكون كلمة رسول معطوفة على اسم الجلالة (الله) تعالى، فاسم الجلالة (الله) اسم إنَّ منصوب، وتكون كلمة (رسول) معطوفة عليها وعلامتها النص فتكون القراءة: (أنّ الله بريء من المشركين ورسولَه).

تأسيساً على ما تقدم كان إعراب القرآن الكريم أمراً (أساساً)، وبعد ذلك كان من الضروري للعالم أن يستعرب لغة ولساناً؛ أي أن يعرف حضارة العرب والمجتمع العربي في كل مراحله كي يستطيع فهم النص القرآني.

وعند القرطبي: «عن علي بن الجعد قال: سمعت شعبة يقول: مثل صاحب الحديث الذي لا يعرف العربية، مثل الحمار، عليه مخلاة، لا علف فيها»[1].

وعنده كذلك: «قال ابن عطية: إعراب القرآن أصل في الشريعة، لأنَّ بذلك تَقوُّم معانيه التي هي الشرع»[2].

---

(١) القرطبي، م. س، ج ١، ص ٤٣.

(٢) القرطبي، م. س، ج ١، ص ٤٣.

ووردت أحاديث عند ابن عطية الأندلسي تُوجِّه إلى الأمر نفسه: «روى ابن عباس أن رجلاً سأل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فقال: أي علم القرآن أفضل؟ فقال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم: (**عربيَّته، فالتمسوها في الشعر**).

وقال أيضاً صلى الله تعالى عليه وسلم: (**أعربوا القرآن والتمسوا غرائبه فإن الله يحب أن يعرب**)[1].

---

(١) ابن عطية الأندلسي، عبد الحق بن غالب، م. س، ج ١، ص ١٤.

مع النصّ القرآني

إنَّ الوحي الذي أنزله الله تعالى على النبيّ محمد ﷺ، ونقله الأمين جبريل، كان بلسان عربي، وكان الإعجاز القرآني إعجازاً عقلياً تجلَّت آياته بأبدع صياغة من لدن العزيز الحكيم، مما أعيا بلغاء العرب على محاكاته. وقد جاء البلاغ الإلهي بشأن هذا الإعجاز في قوله تعالى: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [البقرة/ ٢٣].

هذا النص القرآني الموحى به المعجز عقلاً وإنشاءً ولغة؛ نزل باللسان العربي، ولا تجوز ترجمته إلى لغة أخرى، بل التعبد به وتلاوته تكون باللغة العربية، والجائز في النقل إلى غير العربية هو نقل معاني وتفاسير كلمات القرآن وآياته، وهذا ما عليه إجماع الأمة.

وقد كان ذلك من نعم الله تعالى على أمة العرب، ومن أنواع التكريم لها، حين نزل الوحي بلغة العرب، وحين بُعِث النبي صلوات الله تعالى عليه من العرب، وأرض العرب هي حاضنة النبوَّات والرسالات، وهي أرض المقدسات الإسلامية في القدس والحجاز وسواهما.

إن الآيات البيِّنات جاءت في ثلاث منها تذكر اللسان العربي والقرآن العربي، وفي ثماني آيات جاء بأن القرآن الكريم كان عربياً، والآيات هي:

١ - ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ﴾ [النحل/ ١٠٣].

٢ - ﴿ وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾ [الشعراء/ ١٩٢-١٩٥].

٣ ـ ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ [فصلت/ ٤٤].

٤ ـ ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف/ ٢].

٥ ـ ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَمَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا وَاقٍ﴾ [الرعد/ ٣٧].

٦ ـ ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ [طه/ ١١٣].

٧ ـ ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الزمر/ ٢٨].

٨ ـ ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [فصلت/ ٣].

٩ ـ ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ﴾ [الشورى/ ٧].

١٠ ـ ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الزخرف/ ٣].

١١ ـ ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأحقاف/ ١٢].

يفيد قبل السير مع العربية والعروبة في هذه الآيات أن نتوقف عند المتعارف عليه في تحديد اللغة Langage، واللغة ظاهرة إنسانية إذ أنه لا اجتماع بشري فوق شخصين بلا لغة يتفاهمان بها، وكل إنسان يستطيع أن يتقن أكثر من لغة يتواصل بها مع سواه، ويعبِّر بها عما

يريده، وقد تكون اللغة أداة تواصل لها وظيفة في مجتمع ما، أو تكون لغة خاصة كالقول: لغة الرياضيات، أو لغة الطب، أو لغة الرسم، أو لغة الشعر... إلخ.

وتحديد اللسان Langue هو: الوجه الاجتماعي من اللغة، أو هو اللغة التي تؤدي وظيفة لاجتماع بشري لأمة معينة، فيشكل اللسان نظاماً خاصًّا يكون من مقومات شخصية أمة معينة، وعلى أساس ذلك يقال: اللسان العربي، واللسان الفرنسي، واللسان الفارسي، واللسان التركي... إلخ، واللسان لا يدرس المفردات وخصائصها من صرف ونحو ككيانات مستقلة، بل يدرس المفردات مترابطة وهي تعبِّر عن اجتماعٍ بشريٍّ معيَّن، وتكون قيمة المفردات بالعلاقات القائمة بينها. ومراجعة الآيات القرآنية يفيد أن البلاغ الإلهي الموحى لم ترد فيه سوى مفردة (لسان).

ولعله من اللافت للمعنيين أن يكون ابن منظور (ت ٧١١هـ - ١٣١١م) قد سمَّى موسوعته المعجمية: «لسان العرب». وقال في المقدمة: «فإن الله سبحانه قد كرَّم الإنسان، وفضَّله بالنطق على سائر الحيوان، وشرّف هذا اللّسان العربي بالبيان على كل لسان، وكفاه شرفاً أنه به نزل القرآن، وأنه لغة أهل الجنان»[1].

وعند ابن منظور: «اللغة من الأسماء الناقصة، وأصلها لغوة، من لغا إذا تكلَّم»[2]. وقال في اللسان: «اللسان: جارحة الكلام... قال أعشى باهلة:

---

(١) ابن منظور، م. س، م١، ص ١١.

(٢) ابن منظور، م.س، م٥، ص ٤٠٤٩.

إنِّـي أتتني لســان لا أسـرّ بها   من عُلْوَ لا عَجَبٌ منها ولا سخر

قال ابن بري: اللسان هنا الرسالة والمقالة.

.... وحكى أبو عمرو: لكل قوم لِسْنٌ، أي لغة يتكلمون بها. ويقال: رجـل لَسِـنٌ بيِّـن اللَّسْن، إذا كان ذا بيان وفصاحـة. والإلسـان: إبلاغ الرسالة، وألسن عنه: بلَّغ.

... واللّسـن: الـكلام واللغـة، ولاسـنة: ناطقـة،... واللّسـن: جودة اللِّسان وسلاطته»[1].

هذا التجوال مع اللغة واللســان هدفه جلاء حقيقة هي أن من تعلَّم اللغـة العربيـة دون أن يقف على ثقافـة العرب وحضارتهـم وتاريخهم وواقعهـم بكل ما يسـود فيه لا يكـون من أهل اللسـان العربـي، وهذا لا يمكِّنـه من فهـم دلالة المعنى فـي النـص القرآني، أما إذا اسـتعرب إنسـان لسـاناً فإنه يكون عربيـاً في الاعتبـار القومي العربـي، وهذا من يستطيع أن يعرف دلالة المعنى في كلام الله تعالى.

يصل البحث هنا إلى مراجعة دلالة المعنى في الآيات الكريمات الآنفـات الذكر عند المفسـرين، والبدايـة معها بالترتيـب حيث الآية (١٠٣) مـن سـورة النحل، وقـد ورد فيه (لسـان). قـال القرطبي في تفسـيره: «وقرأ حمزة: (يلحَدون) بفتح الياء والحاء، أي: لسان الذي يميلـون إليـه ويشـيرون أعجمـي. والعُجمة: الإخفـاء وضـد البيان. ورجـل أعجم وامرأة عجماء، أي: لا يفصح.... والعرب تسـمّي كلَّ من لا يعـرف لغتهم ولا يتكلـم بكلامهم أعجمياً.... وأراد باللسـان

---

(١) ابن منظور، م. س، م٥، ص٤٠٢٩، ٤٠٣٠.

القرآن؛ لأن العرب تقول للقصيدة والبيت: لسانٌ، قال الشّاعر:

لسان الشَّر تهديها إلينا وخُنت ما حسبتك أن تخونا.

يعني باللسان: القصيدة، (وهذا لسان عربي مبين)؛ أي: أفصح ما يكون من العربية»[1].

أما الآية الثالثة في الترتيب، وهي الآية (٤٤) من سورة فصلت، فقد قال القرطبي في تفسيرها: «فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى ﴿وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا أَعۡجَمِيّٗا﴾ أي: بلغة العرب ﴿لَّقَالُواْ لَوۡلَا فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥٓ﴾ أي: بُيِّنت بلغتنا، فإننا عرب لا نفهم الأعجمية. فبيَّن أنه أنزله بلسانهم ليتقرّر به معنى الإعجاز؛ إذ هم أعلم الناس بأنواع الكلام نظماً ونثراً. وإذا عجزوا عن معارضته كان من أدلِّ الدليل على أنه من عند الله، ولو كان بلسان العجم لقالوا: لا علم لنا بهذا اللسان.

الثانية: وإذا ثبت هذا ففيه دليل على أن القرآن عربي، وأنه نزل بلغة العرب، وأنه ليس أعجمياً، وأنه إذا نُقِل عنها إلى غيرها لم يكن قرآناً.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿ءَا۬عۡجَمِيّٞ وَعَرَبِيّٞ﴾ وقرأ أبو بكر وحمزة والكسائي: (أأعجمي وعربي) بهمزتين محقَّقتين: والعجمي الذي ليس من العرب كان فصيحاً أو غير فصيح، والأعجمي الذي لا يفصح كان من العرب أو من العجم. فالأعجم ضدّ الفصيح، وهو الذي لا يبيِّن كلامه... والمعنى: أقرآنٌ أعجمي، ونبيٌّ عربي؟ وهو استفهام إنكار»[2].

---

(١) القرطبي، م. س، ج ١٢، ص ٤٣٠، ٤٣١.

(٢) القرطبي، م. س، ج ١٨، ص ٤٢٩، ٤٣٠.

إن ما جاء عن العجمة والعروبة سببه استيعاب النصّ القرآني لمفردات أصلها غير عربي، وعُرِّبت واستوعبتها اللغة العربية التي تتصف دون سائر اللغات بالمرونة، وبالمعدة السليمة التي تقوى على هضم الوافد اللغوي إليها، وتجعله من نسيجها. قال ابن عطية الأندلسي حول الآية (٤٤) من سورة فصلت: «الأعجمي هو الذي لا يفصح، عربياً كان أو غير عربي، والعجمي: الذي ليس من العرب، فصيحاً كان أو غير فصيح، وهذه الآية نزلت بسبب تخليط كان من قريش في أقوالهم من أجل الحروف التي وقعت في القرآن، وهي مما عُرِّب من كلام العجم: كالسِّجِّين والإستبرق ونحوه»[1].

إن اللسان العربي الذي نزل به القرآن الكريم هو أقدر الألسنة على النماء والتطور فقهاً واشتقاقاً وصرفاً وقبولاً لمفردات من لغات أخرى، ولهذا يقرِّر فقهاء اللغة أن اللغة العربية تزداد مفرداتها دوماً، وكلماتها أضعاف مضاعفة لأية لغة أخرى، لذلك ـ والله أعلم ـ شرَّف الله تعالى لغة العرب بأن كان القرآن عربياً، وفي هذا تكليف لأمة العرب، ورفعة، ومرتبة قيادية، والواجب حمل المسؤولية وأداء المهمة الدعوية، وبالمقابل يأتي هذا تحذيراً لمن يكيد للعرب من الشعوبيين القدامى أو المعاصرين، وأن واجبهم مراجعة مواقفهم، والرجوع عن مكائدهم ضد العرب والعروبة، لأن الحطَّ من شأن العرب إنما هو نَيلٌ من حملة الدعوة، ويكون ذلك مدخلاً للنيل من الدعوة نفسها.

إن من يتلو كتاب الله تعالى لا تستقيم تلاوته، ولا يتحقق له الفهم والاستيعاب إلا إذا كان عالماً بالعربية صرفاً ونحواً وإنشاءً. «عن

(١) ابن عطية الأندلسي، عبد الحق بن غالب، م. س، ج ١٤، ص ١٩٣.

يحيى بن عتيق قال: قلت للحسن: يا أبا سعيد، الرجل يتعلَّم العربية يلتمس بها حسن المنطق، ويقيم بها قراءته، قال: حسن يا ابن أخي، فتعلَّمها، فإن الرجل يقرأ الآية فيعيى بوجهها فيهلك فيها، وعلى الناظر في كتاب الله تعالى الكاشف عن أسراره النظر في الكلمة وصيغتها ومحلِّها»[1].

إن متابعة الآيات التي نصَّت على أن القرآن عربي جاءت تبيّن أن مراد الله تعالى من ذلك أن يعقل النَّاس الآيات القرآنية، وأن يأخذوا ما بها من حكم، وأن تكون سبيلاً يوصلهم إلى التقوى، أو أن يحصلوا من خلال العلوم، وتتسع بها مداركهم، وتنمو معارفهم، وتسمو أخلاقهم، وتزكو نفوسهم، وفي الآيات إنذار وبشرى لكل من سار في الطريق القويم.

هذه العربية التي جاء بها الوحي تحتل مكانة عند النَّاس لأن الله تعالى خصَّها بهذا الفضل، وفضل اللغة العربية يشير إلى فضل القوم الذين ينطقون بهذه اللغة، ومن مفرداتها كان لسانهم الذي جعله الله تعالى غير ذي عوج، والنصوص القرآنية بشأن العربية والقرآن الكريم ليست موجهة إلى العرب من غير المسلمين، لأن المسلمين تجمعهم العقيدة والدين، أما العرب بكل أنواعهم فإن العروبة هي الإطار الجامع لهم، وقد تباهى المسيحيون العرب بالإسلام وبالنبي صلوات الله تعالى عليه وعلى الأنبياء جميعاً؛ لأنهم يجتمعون مع المسلمين في إطار خصائص الأمة ووحدة الحضارة واللغة والأرض والمصير والآمال والآلام.

---

(١) السيوطي، جلال الدين، الإتقان في علوم القرآن، ج ١، بيروت، دار الندوة الجديدة، بدون تاريخ، ص ١٧٩.

لقد صدر ديوان شعر قيِّم عنوانه: (شعراء النصارى العرب والإسلام)[1] ومحتوياته قصائد لشعراء مسيحيين تتحدث بفضل الإسلام وتتباهى بالإسلام والنبوة.

قال الشاعر نقولا فياض (ت١٩٥٨م) في ذكرى المولد النبوي: (ص ٢٥):

نبي العرب ألهمني بياناً ... على عجزي أهزُّ به الزمانا

وأرفع للنفوس لواء حقٍّ ... وأبسطه على الدنيا أمانا

وأجعل في حنايا كل صدر ... لمولدك المبارك مهرجانا

وقال الشاعر إدوار نقولا مرقص (ت١٩٤٨) في ذكرى المولد النبوي: (ص ٣٠):

العيد للمسلمين اليوم والعرب ... فيه مع الدِّين معنى الودِّ والنسب

وقال الشاعر شبلي ملّاط (ت١٩٦١) في بيت من ديوانه: (ص٣٣):

رفع الرسول عماد أمة يعرب ... وأعزَّها بالآل والأصحاب

هذا شيء من فخر المسيحي العربي بالإسلام ورسوله، وهو قليل من كثير، وهذا يعني أن العروبة الحضارية عروبة جامعة، لا فئوية فيها ولا تعصب.

إن القرآن الكريم نزل بلسان عربي مبين، ولسان العرب يتَّسع لما لا يتسع له غيره من الألسنة، ولهذا جاء النص القرآني نافياً العجمة،

(١) شعراء النصارى العرب والإسلام، إعداد ماجد الحكواتي، الكويت، منشورات مؤسسة البابطين، عام ٢٠٠٦م.

وكان بناءً عليه واجب كل مسلم من أيّة أمة وقومية أن يتقن العربية من أجل أن يتلو كتاب الله تعالى ليعرف العقيدة والشريعة.

قال الإمام الشافعي: «فأقام حجته (سبحانه) بأن كتابه عربي، في كل آية ذكرناها، ثمّ أكَّد ذلك بأن نفى عنه ـ جل ثناؤه ـ كل لسان غير لسان العرب. ﴿وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾ [النحل/ ١٠٣]. فكان تنبيه العامة على أن القرآن نزل بلسان العرب خاصة؛ نصيحة للمسلمين. والنصيحة لهم فرض لا ينبغي تركه، ونافلةُ خيرٍ لا يدعها إلا من سفه نفسه، وترك موضع حظِّه»[1].

القرآن الكريم نزل بلسان عربي لا عجمة فيه، والعرب هم من كلَّفهم الله تعالى بحمل الدعوة، وواجب المسلمين اتخاذ العرب قادة وأئمة، ومن أراد منهم الإمامة والفقه واجبه أن يستعرب. ولسان العرب بات محل عناية المسلمين عامة لأية أمة أو قومية انتموا، لأن الصلاة لا تكون القراءة فيها بغير العربية، وتلاوة القرآن عبادة أو علماً لا تكون بغير العربية، وفهم النصّ القرآني غير متيسَّر إلا لمن كان عربياً.

وقد أكَّد الإمام الشافعي على واجب المسلم في العناية باللسان العربي، فقال: «على كل مسلم أن يتعلَّم من لسان العرب ما بلغه جهده، حتى يشهد به أنَّه لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله، ويتلو به كتاب الله، وينطق بالذكر فيما افترض عليه من التكبير، وأُمِر به من التسبيح والتشهُّد وغير ذلك»[2].

---

(١) الشافعي، الإمام محمد بن إدريس، الرسالة، تحقيق أ. د. عبد الفتاح كبارة، بيروت، دار النفائس، ط ١، سنة ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٩م، ص ٥٢.

(٢) الشافعي، م. س، ص ٥٣.

الشعوبيون الذين ينالون من العروبة والعرب يبدو أنهم لم يقفوا على قوله تعالى: ﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾ [الشعراء/ ١٩٥]. قال ابن كثير في تفسير الآية: «أي هذا القرآن الذي أنزلناه إليك أنزلناه باللسان العربي الفصيح الكامل الشامل، ليكون بيّناً واضحاً ظاهراً قاطعاً للعذر، مقيماً للحجة دليلاً إلى المحجّة»[١].

أما ابن تيمية فقد جاء كتابه: (اقتضاء الصراط المستقيم) ذاخراً بالنصوص التي تؤكّد على فضل العرب، وعلى أن إتقان اللسان العربي عبادة، وذلك من الدين، لأنه بدون اللسان العربي لا يرتقي فقه العالم، ولا يكون علمه أصيلاً. قال ابن تيمية: «فإن الله (تعالى) لما أنزل كتابه باللسان العربي، وجعل رسوله مبلّغاً عنه الكتاب والحكمة بلسانه العربي. وجعل السابقين إلى هذا الدين متكلّمين به؛ **لم يكمل سبيل إلى ضبط الدين ومعرفته إلا بضبط هذا اللسان، وصارت معرفته من الدين**»[٢].

وإذا كان من فضل الله تعالى ونعمته على العرب أن جعل القرآن الكريم بلسان عربي مبين، والنبي ﷺ عربي، لكن العرب بذاتهم أمة صاحبة فضل حضاري عريق، وكما مرَّ في الفصل الأول من هذا الكتاب فإن جزيرة العرب كانت الأرض المأهولة، وتوزع منها العرب القدماء في المناطق المحيطة التي تشكل اليوم أرض الوطن العربي،

---

(١) ابن كثير، أبو الفداء الحافظ، تفسير القرآن العظيم، ج ٣، بيروت، دار الكتب العلمية، ط ١، سنة ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٤م، ص ٣٢١.

(٢) ابن تيمية، اقتضاء الصراط المستقيم في مخالفة أصحاب الجحيم، القاهرة، دار الحديث بالأزهر، سنة ١٩٧٧، ص ١٤٦.

وكانت هذه البقعة مهد الحضارات الأولى، والانتقاص من فضل العرب ومكانتهم إنما هو فعل شعوبي.

قال ابن تيمية في هذا الموضوع: «وليس فضل العرب، ثم قريش، ثم بني هاشم مجرَّد كون النبي صلى الله تعالى عليه وسلم منهم، وإن كان هذا من الفضل، بل هم في أنفسهم أفضل... ولهذا ذكر أبو محمد حرب بن إسماعيل بن خلف الكرماني، صاحب الإمام أحمد، في وصفه للسُّنَّة التي قال فيها: هذا مذهب أئمة العلم وأصحاب الأثر، وأهل السُّنَّة معروفين بها، المقتدى بهم فيها. وأدركت من أدركت من علماء أهل العراق والحجاز والشّام وغيرهم عليها. فمن خالف شيئاً من هذه المذاهب، أو طعن فيها، أو عاب قائلها، فهو مبتدع خارج عن الجماعة؛ زائل عن منهج السُّنَّة، وسبيل الحق، وهو مذهب أحمد وإسحق بن إبراهيم بن مخلّد، وعبد الله بن الزبير الحميدي، وسعيد بن منصور، وغيرهم ممن جالسنا وأخذنا عنهم العلم.

فكان من قولهم: أن الإيمان قول وعمل ونيَّة، وساق كلاماً إلى أن قال: **ونعرف للعرب حقّها وفضلها وسابقتها، ونحبُّهم**. لحديث رسول الله ﷺ: «**حبُّ العرب إيمان وبغضهم نفاق**». **ولا نقول بقول الشعوبية أراذل الموالي، الذين لا يحبُّون العرب، ولا يقرُّون بفضلهم**، فإن قولهم بدعة وخلاف. ويروون هذا الكلام عن الإمام أحمد (ابن حنبل) نفسه في رسالة أحمد بن سعيد الإصطخري عنه ـ إن صحت ـ وهو قوله وقول عامة أهل العلم.

وذهبت فرقة من الناس إلى أن لا فضل لجنس العرب على جنس العجم. وهؤلاء يسمُّون الشعوبية لانتصارهم، التي هي

مغايرة للقبائل[1]. كما قيل: (القبائل) العرب، والشعوب الأعاجم.

والغالب أن مثل هذا الكلام لا يصدر إلا عن نوع نفاق؛ إما في الاعتقاد، وإما في العمل المنبعث عن هوى النفس، مع شبهات اقتضت ذلك»[2].

إن هذا البيان الجلي للإمام أحمد بن تيمية يأتي ليؤكد موقفاً فقهياً وهو في أصل الإسلام ومقاصده، وهو مبني على نصوص القرآن التي أكدت على عروبة القرآن الكريم، وأن نصوصه بلسان عربي غير ذي عوج وبلسان عربي مبين، ولا محلَّ للعجمة مع هذه العربية، وهذه العروبة.

إن نصوص القرآن الكريم جاءت فيها مفردات ومصطلحات يحتاج فهمها إلى الوقوف على تجليات الثقافة العربية، وقبل الإسلام على شعر العرب لأنه مدونات فكرهم وأدبهم وعلومهم ومعارفهم وعاداتهم ومنظومتهم القيمية.

ختام هذا المبحث يفيد فيه هذا القول لعبد الله بن عباس رضي الله عنهما: «حدثنا عبيد بن عبد الواحد بن شريك البزاز قال: حدثنا ابن أبي مريم، قال: أنبأنا ابن فرّوخ قال: أخبرني أسامة، قال: أخبرني عكرمة أن ابن عباس قال: إذا سألتموني عن غريب القرآن، فالتمسوه في الشِّعر، فإنَّ الشِّعر ديوان العرب»[3].

---

(١) قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ﴾ [الحجرات/ ١٣] وقد قال المفسرون بأن القبائل المعنيين في الآية هم العرب، وأما الشعوب فهم غير العرب؛ أي العجم. لذلك سمّي كل من يحط من شأن العرب، ويتنكر لفضلهم شعوبياً.

(٢) ابن تيمية، م. س، ص ١٣٥.

(٣) القرطبي، م. س، ج ١، ص ٤٤.

وقفة مع نصوص السُّنَّة النبوية بشأن العرب والعروبة

إن السُّنَّة النبوية الشريفة جاءت تفسِّر أو تفصِّل، وإن التوجيه النبوي الشريف جاء في نصوص كثيرة مبيناً فضل العرب وموقعهم بدءاً من الربط مع النص القرآني. وفي الحديث النبوي: «روى ابن عباس أن رجلاً سأل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم، فقال: أيُّ علم القرآن أفضل؟ فقال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم: (**عربيَّته، فالتمسوها في الشِّعر**)»[1].

وإذا أحب الإنسان قومه وأرحامه، وبني أمته ووطنه فإن ذلك لا يندرح في باب العصبية، بل الأصل أن هذا الحب والنعرة لقوم الإنسان إنما هو فطرة، ومشاعر في النفس لا يخلو منها أيٌّ بني آدم. والعصبية هي أن يكون هذا الحب في حالة من الغلوِّ، والموقف المبني على الموافقة أن يمارس القوم الظلم على غيرهم، والمقت كل المقت أن ينصر إنسان أحداً من بني قومه حتى لو وجده يدعو لباطل، أو يسير في طريق المفاسد والرذائل. أما إذا نصر الإنسان قومه على الحق والرشاد في الموقف، والحكمة في الرأي، والسداد في الخطى السليمة فإن ذلك هو المطلوب.

وفي الحديث النبوي الشريف: «عن عبادة بن كثير الشّامي من أهل فلسطين، عن امرأة منهم، يقال لها: فسيلة، أنها قالت: سمعت أبي يقول: سألت رسول الله ﷺ: قلت يا رسول الله، أَمِنَ العصبية أن يحبَّ الرجل قومه؟ قال: (**لا، ولكن من العصبية أن ينصر الرجل قومه على الظلم**)[2].

---

(١) ابن عطية الأندلسي، م. س، ج ١، ص ١٤.

(٢) أخرجه ابن ماجه في السنن، وأحمد بن حنبل في المسند.

وفي رواية أخرى للحديث جاء: «حدَّثنا أحمد بن داود المكي، قال: حدثنا عبد الوهاب بن نجدة الحوطي، حدثنا الوليد بن مسلم عن صدقة بن يزيد، قال: قلت يا رسول الله: الرجل يحبُّ قومه، أعصبي هو؟. قال: (لا). قلت: من العصبي؟. قال: (**الذي يعين قومه على الظلم**)[1].

تأسيساً على ما تقدم تجدر العودة إلى مواقف نبوية جاءت تبيِّن فضل العرب، ومكانتهم بين الشعوب والأمم، وفي ذلك ردٌّ على أهل العصبيات من الشعوبيين الذين يكيدون للعرب لخلفيات ومقاصد، وبذلك يكونون قد جانبوا الحقيقة.

روى «ابن تيمية» في «اقتضاء الصراط المستقيم»: «حدَّثنا عبد الله بن بكر السهمي، حدثنا يزيد بن عوانة، عن محمد بن ذكوان ـ قال حماد بن زياد ـ عن عمرو بن دينار عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما، قال:

إنَّا لقعود بفناء النبي صلى الله تعالى عليه وسلم، إذ مرَّت بنا امرأة. فقال بعض القوم: هذه ابنة رسول الله، فقال أبو سفيان: مثل محمد في بني هاشم مثل الريحانة في وسط النتن. فانطلقت المرأة فأخبرت النبي صلى الله تعالى عليه وسلم، فجاء النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يُعرف في وجهه الغضب. فقال: (**ما بال أقوال تبلغني عن أقوام؟ إن الله خلق السماوات سبعاً، فاختار العليا منها، وأسكنها من شاء من خلقه، ثمَّ خلق الخلق، فاختار من الخلق بني آدم، واختار من بني آدم العرب، واختار من العرب مضر، واختار من مضر قريشاً، واختار من قريش بني هاشم، واختارني من بني هاشم،**

---

(١) أخرجه سليمان بن أحمد الطبراني في المعجم الكبير.

فأنا خيار من خيار، فمن أحبّ العرب فبحبي أحبَّهم، ومن أبغض العرب فببغضي أبغضهم»[1].

والنصُّ نفسه أخرجه «الحاكم النيسابوري»، وعنده: «**ثم خلق الخلق، فاختار من الخلق بني آدم، واختار من بني آدم العرب، واختار من العرب مضر، واختار من مضر قريشاً، واختار من قريش بني هاشم، واختارني من بني هاشم، فأنا من بني هاشم من خيار إلى خيار، فمن أحب العرب بحبي أحبَّهم، ومن أبغض العرب فببغضي أبغضهم»**[2].

إن هذا الحديث يبين التسلسل في النسب من آدم عليه السلام إلى النبي محمد ﷺ، ويؤكد موقع العرب بين البشر، والمعلوم تاريخياً أن الجزيرة العربية بقسميها اليمن والحجاز وما جاورها؛ أي: عرب الجنوب وعرب الشمال، هي الموقع الأول منذ تاريخ أغواره عميقة، أقلها خمسون ألف سنة الذي سكنه الأولون من البشر، ومنه انتشروا إلى الجوار الجغرافي فأصقاع العالم قاطبة. كما أن أرض الوطن العربي كانت مهبط الوحي وأرض الرسالات، والنبوة، والمقدسات؛ لذلك تتمتع أمة العرب بخصوصية تؤهلها لحمل رسالات السماء إلى أمم الأرض جميعاً، وهي الأمة الوسط موقعاً وفكراً، لذلك حذَّر رسول الله تعالى ﷺ من أن يحمل أحدٌ البغضاء للعرب، وهذا الحديث النبوي يأتي ليعالج مشكلة الحركة الشعوبية التي تكيد للعرب حسداً

---

(١) ابن تيمية، م. س، ص ١٤٠.

(٢) الحاكم النيسابوري، المستدرك على الصحيحين، ج ٤، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، بيروت، دار الكتب العلمية، ط ١، سنة ١٤١١هـ ـ ١٩٩٠م، ص ٨٣.

وحقداً، والحسد والحقد ليسا من أخلاقيات الإسلام، ويقرر الحديث النبوي الشريف: أن من أحب الرسول العربي، رسول الله تعالى إلى الناس كافة، الذي بعثه الحقُّ سبحانه رحمة للعالمين، فواجبه أن يحب العرب، ومن كان من المبغضين للعرب فكأنه أبغض الرسول ﷺ.

وقد ورد النص نفسه عند عبد الرحيم بن الحسين العراقي في مخطوط له عنوانه: «محجَّة القرب إلى محبة العرب» (النسخ تمَّ عام ١٠٣٥هـ) وقال في الصفحة الأولى: «الحمد لله الذي فضَّل العرب ببعثهِ منهم سيد البشر نبياً، وفضل أحسن الكتب بلغتهم قرآناً عربياً، وجعل لسان أهل الجنة فيها العربية، فكان لسان صدق علياً.». بعد هذا التقديم أورد الحديث في الصفحة الرابعة من المخطوط، والنص عنده: «وخلق الخلق فاختار من الخلق بني آدم، واختار من بني آدم العرب، واختار من العرب مضر، واختار من مضر قريشاً، واختار من قريش بني هاشم، واختارني من بني هاشم، **وأنا من خيار إلى خيار، فمن أحبَّ العرب فبحبِّي أحبَّهم، ومن أبغض العرب فببغضي أبغضهم**».

هذا النص الحديثي تكرر في مواقع كثيرة من الكتب، وهو في السياق الذي يؤكد أن قوم الشخص ليسوا جميعاً على معتقد واحد، وفكر واحد، والأمر كان مع أنبياء الله تعالى جميعاً ـ كما مرَّ سابقاً ـ وقوم العرب، وهم قوم الرسول صلوات الله تعالى عليه، ليسوا على منهج واحد، وانتماء واحد، لكنهم قومه، ومن أبغضهم، وانتقص من كرامتهم ومكانتهم يكون قد نال من الرسول نفسه. وإنه من المفيد التكرار أن العروبة ليست عرقاً ولا عصبية، وإنما هي إطار قومي حضاري جامع لكل من تعرَّب لساناً وثقافة وحضارة،

هذا الحبُّ المطلوب للعرب أتى في نص حديثي آخر هو:

«أخبرنا أبو نصر، عن قتادة، عن أبي الحسن بن إسماعيل السراج، حدثنا مطين، حدثنا العلاء بن عمرو الحنفي، حدثنا يحيى بن يزيد الأشعري، عن ابن جريج، عن عطاء، عن ابن عباس قال: قال رسول الله تعالى: (**أحبُّوا العرب لثلاث؛ لأني عربي، والقرآن عربي، وكلام أهل الجنة العربية**)[1].

والنص وارد عند شيخ الإسلام ابن تيمية، وهو: «روى أبو جعفر محمد بن عبد الله الحافظ الكوفي المعروف بمطّين، حدثنا العلاء بن عمرو الحنفي، حدثنا يحيى بن زيد الأشعري، حدثنا ابن جريج، عن عطاء، عن ابن عباس ﵄، قال: قال رسول الله تعالى ﷺ: (**أحبُّ العرب لثلاث: لأنِّي عربي، والقرآن عربي، ولسان أهل الجنَّة عربي**)». (قال الحافظ السلفي: هذا حديث حسن)[2].

وقد ناقش المحدّث إسماعيل بن محمد العجلوني سند الحديث ودرجته، وما ورد عنده: «(**أحبُّوا العرب لثلاث: لأنِّي عربي، والقرآن عربي، وكلام أهل الجنة عربي**) وفي لفظ: (**وكلام أهل الجنة في الجنة عربي**)، قال: في الأصل رواه الطبراني والحاكم والبيهقي وآخرون عن ابن عباس مرفوعاً فيه ضعيف جداً، ورواه الطبراني أيضاً عن أبي هريرة مرفوعاً بلفظ: (**أنا عربي، والقرآن عربي، وكلام أهل الجنة عربي**) وهو

---

(١) البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين، شعب الإيمان، ج ٢، تحقيق: محمد السعيد بسيوني زغلول، بيروت، دار الكتب العلمية، ط ١، سنة ١٤١٠هـ، ص ٢٣٠.

(٢) ابن تيمية، م. س، ص ١٤٣.

مع ضعفه أقوى من حديث ابن عباس، وأخرجه أبو الشيخ بسند ضعيف أيضاً عن أبي هريرة مرفوعاً بلفظ:

(**أحبوا العرب وبقاءهم، فإن بقاءهم نور في الإسلام، وإن فناءهم ظلمة في الإسلام**)، ورواه الدارقطني عن ابن عمر بلفظ: (**حب العرب إيمان وبغضهم نفاق**)، ورواه الدارقطني ـ أيضاً ـ عن علي بلفظ: (**من لم يعرف حقَّ عترتي والأنصار والعرب فهو لأحد ثلاث: إما منافق، وإما لريبة، وإما لغير طُهور**)؛ يعني حملت به أمه في الحيض، أو هو ولد زنا، **وقد وردت أخبار كثيرة في حبِّ العرب يصير الحديث بمجموعها حسناً**، وقد أفردها بالتأليف جماعة، منهم الحافظ العراقي، ومنهم صديقنا الكامل السَّيد مصطفى البكري، لا زالت عوائد الأفضال علينا تجري، فإنه ألَّف في ذلك رسالة نحو العشرين كراسة جمعت غرر الفوائد وجواهر القلائد، سمّاها: (الفرق المؤذن بالطرب في الفرق بين العجم والعرب)، وقد وقفت عليها، وقرضت له عليها بأبيات هي قولي:

رسالة آذنت بالفضل للعرب سُلافة أطربتنا غاية الطرب.»[1]

... إلخ.

ما أخرجه العجلوني إنما هو حشد لأحاديث أخرجها المحدِّثون في سننهم، منها الحديث: «أخبرنا أبو عبد الرحمن السلمي عن داود بن محمد بن العباس بالكوفة، حدثنا أبو الحريش أحمد

---

(١) العجلوني، إسماعيل بن محمد (ت ١١٦٢ هـ)، كشف الخفاء ومزيل الإلباس، ج ١، تصحيح وتعليق أحمد القلاش، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط ٤، سنة ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م، ص ٥٥، ٥٦.

بن عيسى، حدثنا مؤمل بن وهاب، حدثنا: عبد الله بن موسى، حدثنا ابن أبي ليلى، عن عدي بن ثابت، عن البراء قال: قال رسول الله تعالى ﷺ: (**حبُّ العرب إيمان، وبغضهم نفاق**)»[1].

ومتابعة لمسألة الأحاديث بشأن العرب يجد المتابع عند المحدث محمد بن عبد الباقي الزرقاني (ت ١١٢٢ هـ) ما يلي:

«**أحبُّوا العرب لثلاث: لأني عربي، والقرآن عربي، وكلام أهل الجنة عربي**»[2].

وقال: إن الحديث حسن لغيره.

وأخرج الزرقاني كذلك: «**حبُّ العرب إيمان، وبغضهم نفاق**»[3].

لماذا يكون حبُّ العرب واجباً؟ فالأمر بكل واقعية مرتبط بالإسلام نفسه. فالإسلام قد نزل القرآن الكريم فيه بلسان عربي قويم غير ذي عوج، ولا يستطيع إنسان أن يفقه نصوص الكتاب الكريم دون أن يكون عربياً أو مستعرباً، ودون أن يحيط بثقافة العرب، وتراثهم، وعوائدهم لأن ذلك له حضوره في النص القرآني، من هنا كانت عروبة اللسان.

عند مراجعة نصوص القرآن الكريم نجد مثلاً نصّاً في سورة التوبة

---

(١) البيهقي، م. س، ص ٢٣٠.

(٢) الزرقاني، محمد بن عبد الباقي، مختصر المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة الناس، تحقيق د. محمد بن لطفي الصباغ، الرياض، مكتبة التربية العربية لدول الخليج، سنة ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٥م، ص ٥٥، ٥٦.

(٣) الزرقاني، م. س، ص ١١٠.

لا يستطيع تفسير معناه إلا من كان ملمًّا بالاجتماع البشري العربي قبل الإسلام. قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔوا۟ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّوا۟ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ ۚ زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَـٰلِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ [التوبة/ ٣٧].

النسيء: مصطلح معلوم عند العرب قبل الإسلام، ودلالة المعنى فيه هي تأخير حرمة الأشهر الحرم التي تعاهد العرب عليها بأن تكون أشهر أمان لا قتال فيها. والأشهر الحرم وفق التأقيت القمري هي: ذو القعدة وذو الحجة ومحرم ورجب.

كان العرب قبل الإسلام في الجزيرة العربية وما حولها أهل غزو وقتال، وكانوا بسبب ذلك يأتون إلى شيخ القبيلة أحياناً مطالبين بتأخير حرمة شهر من الأشهر الحرم قائلين: (أنسئ عنَّا حرمة هذا الشهر) وفي هذا تلاعب بالمواثيق يجلب الأذى لقوم التزموا حرمة الشهر، فجاء كلام الله تعالى ينكر هذا السلوك، والسؤال: كيف يفهم هذا النص غير العربي أو المستعرب؟

وسلمان رضي الله عنه الذي طيّب الرسول عليه الصلاة والسلام خاطره هو الذي وجه الرسول عليه الصلاة والسلام إليه الخطاب بضرورة أن يحب العرب. وقد جاء في «اقتضاء الصراط المستقيم»: «وأيضاً في المسألة ما رواه الترمذي وغيره من حديث أبي بدر شجاع بن الوليد عن قاموس بن أبي ظبيان عن أبيه، عن سلمان رضي الله عنه قال:

قال رسول الله تعالى صلى الله تعالى عليه وسلم: (**يا سلمان لا تبغضني فتفارق دينك**). قلت: يا رسول الله، كيف أبغضك، وبك هداني الله؟

قال: (**تبغض العرب فتبغضني**). قال الترمذي: هذا حديث حسن لغيره، لا يعرف إلا من حديث أبي بدر بن شجاع بن الوليد»[1].

وأخرج الحديث الحاكم النيسابوري في «المستدرك على الصحيحين» وهو عنده: «حدثنا أبو عبد الله محمد بن عبد الله الصاحب الأصبهاني، حدثنا أحمد بن مهدي بن رستم، حدثنا أبو بدر شجاع بن الوليد، حدثنا قابوس بن أبي ظبيان عن أبيه، عن سلمان رضي الله عنه قال: قال رسول الله تعالى صلى الله تعالى عليه وسلم:

(**يا سلمان لا تبغضني فتفارق دينك**). فقلت: يا رسول الله وكيف أبغضك وبك هداني الله عز وجل؟ قال: (**تبغض العرب فتبغضني**). هذا حديث صحيح الإسناد لم يخرجاه»[2]. (أي البخاري ومسلم).

ونترك التعليق على مقصد هذا الحديث النبوي الشريف لشيخ الإسلام ابن تيمية الذي قال: «ويشبه أن يكون النبي صلى الله تعالى عليه وسلم خاطب بهذا سلمان ـ وهو سابق الفرس، ذو الفضائل المأثورة ـ تنبيهاً لغيره من سائر الفرس، لما أعلمه الله من أن الشيطان قد يدعو النفوس إلى شيء من هذا.

وهذا دليل على أن بغض جنس العرب ومعاداتهم كفر أو سبب للكفر. ومقتضاه: أنهم أفضل من غيرهم، وأن محبتهم سبب قوة الإيمان، لأنه لو كان تحريم بغضهم كتحريم بغض سائر الطوائف، لم يكن ذلك سبباً لفراق الدين، ولا لبغض الرسول»[3].

---

(١) ابن تيمية، م. س، ص ١٤٠.

(٢) الحاكم النيسابوري، م. س، ج ٤، ص ٩٦.

(٣) ابن تيمية، م. س، ص ١٤١.

تأتي هذه النصوص الحديثية في سياقات متنوعة، وبمتون متنوعة، وهي بذلك تعضد بعضها بعضاً، وتقوّي بعضها بعضاً، فتشكل بنياناً لا مناص من الأخذ به لجهة معرفة فضل العرب، وموقعهم في الإسلام، وهو بيان يأتي ليؤكد مرة بعد أخرى وجود حبل متين يربط بين العروبة والإسلام، وليؤكد على فضل العرب، ويحوي التحذير من مسألة النيل منهم.

ويأتي دور اللغة في الخطاب حيث يظهر أن التحدث بالعربية، وأن استخدامها لغة وظيفية أمر أساسي في الإسلام تأسيساً على ما سبق عرضه. لقد أخرج ابن تيمية في «اقتضاء الصراط المستقيم» الحديث الآتي بيانه:

«روى السِّلْفي من حديث سعيد بن العلاء البرذعي، حدثنا إسحق بن إبراهيم البلخي، حدثنا عمر بن هارون البلخي، حدثنا أسامة بن زيد عن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما قال:

قال رسول الله تعالى صلى الله تعالى عليه وسلم: (**من يحسن أن يتكلم بالعربية فلا يتكلم بالعجمية، فإن ذلك يورث النفاق**)»[1].

إن العربي أو المستعرب مطالب أن يستخدم العربية في كلامه كي يعتاد لغة قومه وأمته، ولغة دينه. ودوام الكلام بالعربية يقوِّي ملكة اللغة، إذ القاعدة: (اللغة بالممارسة لا بالمدارسة). يضاف إلى ذلك أنَّ التَّحدُّث بغير العربية من قبل العربي إنما يدلُّ على حالة من النفاق، والظهور بغير حقيقة اللسان، وإذا درس الإنسان تاريخ الأمم يجد أن

(١) ابن تيمية، م. س، ص ١٨٣.

اللغة من أهم مقومات الشخصية القومية، ولذلك كان المحتل الطامع ببلدٍ يسعى لنسخ لغته، وذلك تمهيداً لنسخ شخصيته القومية والوطنية، وما فعله المحتل الغاصب الفرنسي في الجزائر وعموم المغرب العربي ليس عنّا ببعيد.

ويأتي مع ذلك أمر تدبُّر آيات الذكر الحكيم، وفي هذا قال ابن تيمية: «إنما الطريق الحسن؛ اعتياد الخطاب بالعربية، حتى يتلقنها الصغار في الدور والمكاتب، فيظهر شعار الإسلام في فقه معاني الكتاب والسُّنَّة وكلام السلف»[1].

إن أمة العرب هي مهد النبوات والرسالات، وحاضنة المقدسات، وبالنسبة للإسلام فإنها أمة الدعوة، وحاملة الدعوة، والعرب هم مادة الإسلام الأولى، وكل انتقاص من شأنهم ومكانتهم انتقاص من الإسلام.

هذا الأمر توافق عليه السلف، ومما قالوه: «الحمد لله الذي خلق الخلق فاختار منهم العرب، وميَّزهم بأن رفع بهم منار الأدب، فحازوا قصبات السبق في مضمار الفخار المحبوك بأعلى الحسب، لا سيما وقد اصطفى نبيه من خير قبائلهم، وانتخبه من أشرف عشائرهم، فهو أظهرهم أرومة، وأزكاهم فرعاً»[2].

إن فضل العرب وما منحهم الله تعالى إياه من مواهب لا يعني أن أحداً يذهب مذهب العنصرية، أو الاستعلاء على الأمم الأخرى، وإنما

---

(1) ابن تيمية، م. س، ص ١٨٥.

(2) السويد، أبو الفوز محمد أمين، سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب، مصر، المكتبة التجارية الكبرى، بدون تاريخ، ص ٤.

هي قدرات وطاقات تؤهلهم لحمل الرسالة، وهو أمر تكليف لا سبب تشريف، فالتكليف يكون حسب الإمكان والوُسع، وقوله تعالى: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ [البقرة/ ٢٨٦]. ولأن الأمة العربية أمة الرسالات، ومهد النبوات، فإن تكليفها بهذه المهمة اقتضى أن يمتلك أهلها من الطاقة الذهنية، أو الشحنة الوجدانية، وخصائص اللسان ما يؤهلهم لمهمتهم.

لقد قال أبو منصور الثعالبي في هذا الباب: «إنَّ من أحبَّ الله أحبَّ رسوله المصطفى صلى الله تعالى عليه وسلم. ومن أحب النبي العربي أحبَّ العرب، ومن أحبَّ العرب أحبَّ اللغة العربية التي بها نزل أفضل الكتب على أفضل العجم والعرب، ومن أحبَّ العربية عُني بها وثابر عليها، وصرف همَّته إليها. ومن هداه الله للإسلام، وشرح صدره للإيمان، وآتاه حسن سريرة فيه، اعتقد أنَّ محمداً صلى الله تعالى عليه وسلم خير الرسل، والإسلام خير الملل، والعرب خير الأمم، والعربية خير اللغات والألسنة. والإقبال على تعلُّمها من الديانة. إذ هي أداة العلم، ومفتاح التفقُّه في الدين، وسبب إصلاح المعاش والمعاد، ثمَّ لإحراز الفضائل، والاحتواء على المروءة وسائر أنواع المناقب، كالينبوع للماء، والزّند للنار»[1].

---

(١) الثعالبي، أبو منصور، فقه اللغة وسرّ العربية، تحقيق ومراجعة د. فائز محمد، ود. إميل يعقوب، بيروت، دار الكتاب العربي، ط ١، سنة ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٣م، ص ٥.

الفصل الرابع

العروبة والإسلام في الواقع المعيوش

إن مدارس فكرية معاصرة فرضت موضوع العلاقة بين العروبة والإسلام على الأطروحات الفكرية المعاصرة. فلقد طرح بعضهم فكراً سياسياً فيه مفهوم للقومية العربية متأثراً بالفكر الغربي، وأساسه لاديني Laique (علماني)، ومثل هذا الفكر لا يقرُّ بحقيقة هي: إن نسيج الأمة العربية قد اكتمل في فضاء الإسلام وأن ثقافة الأمة من أساساتها الإيمان، وأن الكثير من مكوناتها القيمية مستفاد من الإسلام.

وهناك قبيل آخر وقف على الطرف النقيض لهذا القبيل، وقد أنكر العروبة وسماتها وخصائصها وفضلها باسم الإسلام، فتحدث في أطروحته الفكرية عن انتماء ديني (عقدي) لا يقرُّ بالوحدات القومية وتعدد الأُمم، ولا يعترف بالوطنية، وهذا الفريق حلَّق في أجواء فكرية لا تقرُّ بواقع اجتماعي هو من سنن الله تعالى في خلقه. فسنَّة الله تعالى في خلقه جعلتهم أمماً وجماعات، لكل أمة منها أو جماعة قومية سمات وخصائص مشتركة تجعلها مختلفة عن غيرها.

لماذا المشكلة؟ إن هذه المشكلة ناشئة بتأثير عامل الجهل عند كلا الفريقين، وقيل قديماً: «الإنسان عدوٌّ ما يجهل».

هذا الجهل أو التجهيل ساعدت عليه قوى شعوبية نصبت

وتنصب الأفخاخ للعروبة والإسلام معاً، لأنها تعلم بأن اصطناع هذه المعارك الوهمية يشتت الطاقات، وينشر التباغض بين أبناء الأمة، ويجعل مكونات حزبية ومؤسسية تصرف جهوداً لا تقرُّ بالواقع المعيوش، وهي جهود تذهب سدى، فلا هي تحرِّك ساكناً، ولا هي تسكِّن متحركاً.

عندما يكون الحديث عن العروبة والإسلام فإنه لا يكون حديثاً عن طرفين، أو متناظرين، أو متناقضين، أو عن مصطلحين لا ارتباط بينهما، بل عن مقوِّمين متلازمين لاجتماع بشري، هو مجتمع الأمة العربية التي تبلورت شخصيتها في فضاء الإسلام، واستكملت مكونات مشروعها الحضاري مستمدةً المرتكزات الأساسية له من منظومة قيمية نابعة من أُسس إيمانية، حيث بات الإيمان الديني بلا عصبيات طائفية أو مذهبية السِّمَة الرئيسة للأمة العربية.

إن العرب قوم من البشر لهم عراقتهم ووجودهم، وكانوا في قبائل ومجموعات سكانية اتخذت مسميات عديدة، وعندما جاء الإسلام بات واقع التوزيع السكاني على الوجه الآتي:

١ ـ عرب اعتنقوا الإسلام.

٢ ـ عرب ظلُّوا على انتمائهم الديني السابق على الإسلام، وهم في الغالب مسيحيون، لكنهم عرب أسهموا في المشروع الحضاري في رحاب الإسلام.

٣ ـ مسلمون من أمم وقوميات غير عربية اعتنقوا الإسلام عقيدة وشريعة، وكانت لهم شخصيتهم الوطنية التي حافظوا عليها.

هكذا أصبح أبناء الأمة العربية مسلمين وغير مسلمين تجمع

نسيجهم المواطنة، والانتماء لأمة واحدة إذا اعتمد المتحدث الأمة بدلالة هي: أن الأمة مجتمع بشري له خصائص تميِّزه عن سواه من المجتمعات ـ كما مرَّ في تعريف الأمّة سابقاً ـ، وهناك مسلمون عرب وغير عرب، كما الحال بالنسبة لأتباع الرسالات السماوية الأخرى وللمعتقدات عموماً، وهؤلاء المسلمون يشكلون أمة إذا اعتمد المتحدث مصطلح الأمة بدلالة الدين أو الملَّة.

قال الشيخ محمد الغزالي في هذا الموضوع: «نعم اقترنت العروبة والإسلام من أمد بعيد، في حضارة واحدة وتاريخ مشترك، وشعر العالم كله بهذا الرباط القوي الجامع، فهو إذا تصوّر الإسلام لا يستطيع أن ينسى العرب الذين آمنوا به وطوَّفوا أرجاء العالمين برسالته.

وهو إذا تصوّر العروبة لا يستطيع أن ينسى الدين الذي أعلى شأنها، وخلَّد أدبها، وجمع من شتاتها دولة قدَّمت للإنسانية أزكى المثل وأرجح القِيَم.

إن الإسلام لا ينفكُّ عن العروبة أبداً، ذلك أن القرآن الكريم قد اختارت الأقدار له لغة معيَّنة ينزل بها، وتكون وعاء لهداياته، وهي العربية»[1].

إذا كان الإسلام مع العروبة في عروة وثقى، وانفصامها غير ممكن، فإن ما يثار من تناقض مفتعل إنما هو من باب الكيد للإسلام والعروبة معاً. وما ذلك إلا لأن أصحاب الأهواء والكيد يتعسَّفون في استخدام

---

(١) الغزالي، الشيخ محمد، م. س، ص ١٢.

المصطلح، كما الحال عند من يطرحون الأفكار مجتزأة، أو المفردات في غير موقعها الدلالي، وغرضهم من ذلك افتعال مشكلات فكرية تسبب الانقسام، وتنتج الفتن الفكرية، ومن هذا القبيل تكون العصبيات، وغير خافٍ على أحد مقدار الشحن الذي سبَّبه الشعوبيون بين التيارات الفكرية والسياسية في الأمة، ولا ضرورة لمثل هذا الطرح لأن الانفصام بين ما هو عروبي أو إسلامي إنما هو أمر مفتعل لا أساس له، فما من عروبي أيًّا كان معتقده إلا ويكون مقرًّا بدور الإسلام في صياغة شخصية الأمة العربية، وما من مسلم حقٍّ إلا وتجده مقرًّا بفضل العرب، وبدورهم المتميِّز في الدعوة والفقه والحضارة وحماية الإسلام. لماذا المشكلة إذاً؟

إنها لعنة الجهل، أو بلاء التجاهل. العروبة اصطلاحاً شيء، والإسلام اصطلاحاً أمر آخر. الإسلام عقيدة وشريعة دين بعث الله تعالى به النبي محمد ﷺ للناس كافَّة، ورحمة للعالمين، وهو دين للثقلين: الإنس والجن؛ قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ ﴾ [سبأ/ ٢٨]. «أما العروبة فعلاقة انتماء مقصورة على شعب معين من بين الشعوب ومكان معين من الأرض، علاقة انتماء إلى أمة تكوَّنت خلال مرحلة تاريخية طويلة كاستجابة موضوعية لحتمية تقدم الشعوب بعد أن استنفدت العلاقة الأسرية ثمّ العشائرية ثمّ القبلية ثمّ الشعوبية كل طاقاتها على تحقيق التقدم»[1].

الإسلام دين والعروبة رابطة اجتماعية حضارية، والإسلام يشمل كل المنتمين إلى عقيدة واحدة بينما العرب تضمُّ من يتكلمون لغة واحدة،

---

(١) سيف الدولة، د. عصمت، م. س، ص ٢٤.

ويعيشون على أرض واحدة، ومن لهم تاريخ واحد، وآمال واحدة وآلام واحدة، وهنا يتجدد السؤال: لماذا المشكلة أيها المغرضون؟

لكن الإسلام، ككل رسالات السماء الخالدة، كان في جانب منه ثورة اجتماعية حضارية، إذ هدف الرسالات السماوية تحقيق الكرامة للإنسان المستخلف في الأرض، وتوفير كل ما يؤمِّن إسعاده وهناءته واستقراره. ومن هذه الجهة كانت العلاقة الخاصة بين العروبة والإسلام، وأول ذلك أن عقيدة التوحيد كانت بدل ما يسود من الشّرك، والوحدة المجتمعية العربية تحققت بأبهى صورها بدل العصبيات القبلية.

قال المؤرخ عبد العزيز الدوري: «أعطى الإسلام العرب عقيدة وكوّن لديهم شعوراً برسالة فقد أحلَّ وحدة العبادة محل التعدُّد والبعثرة، ورفض العصبية القبلية المفرِّقَة، وأحلَّ رباط العقيدة محلها، ونبذ الأعراف القبلية، وهيأ قيماً ومُثلاً جديدة ووجهة مشتركة في الحياة وأساساً لتشريع شامل...

... وجاء التنزيل بلسان عربي مبين، فثبَّت العربية وأكسبها منزلة خاصة، وجعلها أساس العروبة حين جعل النسبة إليها، فكان لذلك أبعد الأثر في تكوين الأمة العربية في التاريخ، ووحَّد الإسلام العرب لأول مرة في التاريخ في إطار دولة واحدة تضمُّ عرب الشمال وعرب الجنوب بتراثهم الحضاري الغني، وتجمع بين البدو والحضر في دعوة واحدة وحركة واحدة، وأنهى بذلك حالة المجابهة والصراع بين البدو والحضر»[1].

---

(١) الدوري، د. عبد العزيز، التكوين التاريخي للأمة العربية، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ط ٣، سنة ١٩٨٦، ص ٣٧.

هذه الحقيقة التاريخية التي قرَّرها القدامى والمعاصرون حقيقة تبيّن مكونات الأمة وسمات شخصيتها القومية، والخصوصية القائمة بين العروبة والإسلام، هذه الخصوصية التي شكَّلت بُعداً ثقافياً متميزاً، إيماني الأسس التي يقف على رأسها عقيدة التوحيد وتوحيد الكلمة والصف، وبُعداً إنسانياً يلتزم كل ما فيه كرامة الإنسان، وقد أنتج ذلك ثورة حضارية، ونهضة علمية غير مسبوقة.

وقد تحدث في هذا المفكر عصمت سيف الدولة حيث قال: «لم يكن الإسلام ديناً فحسب، بل كان ثورة اجتماعية ذات مضامين حضارية. أنشأت بينه وبين الأمة العربية علاقة عضوية تاريخية خاصة. ذلك أن الإسلام كثورة اجتماعية قد لعب دوراً أساسياً في تكوين الأمة العربية. فما ينكر الوجود القومي العربي للأمة العربية إلّا من ينكر على الإسلام مضمونه الثوري الحضاري الذي أسهم في تكوين الأمة العربية. وما ينكر أن الأمة العربية أمة الإسلام ـ إذ قد أسهم في وجودها ولم تكن موجودة قبله ـ إلا الذين يفرغون العروبة من حضارتها، والحقّ أنه حيث نبحث عن حضارة إسلامية خالصة من الآثار الشعوبية لا نجد إلا في الحضارة العربية، وحيث نبحث عن حضارة عربية خالصة من الآثار القبلية لا نجدها إلا في الحضارة الإسلامية»[1].

العرب القدماء كانوا ينتشرون في مساحة جغرافية تقع بين المحيط الأطلسي والخليج العربي، ولكنهم لم يكونوا قد شكَّلوا بعد كياناً واحداً أو عرفوا دولة واحدة، وبفضل الإسلام وفي فضائه تبلورت

(١) سيف الدولة، عصمت، م. س، ص٧٣.

الشخصية الواحدة للأمة العربية، واتخذت الأمة العربية إطارها القومي، وتحقَّق وجودها في أمة لها مقوماتها الحضارية واللغوية والتاريخية، ولها مشروعها الذي يميّزها عن أمم أخرى دخلها الإسلام وهي صاحبة شخصية قومية تامة.

والإسلام بتشريعاته في الشأن السياسي والاقتصادي والاجتماعي والأخلاقي، وفي سائر الأمور الحياتية أعطى الأمة العربية منطلقات مسيرتها الحضارية، ومنه استحدث الأهداف والمقاصد التي تتجه إليها.

كان ممن أكدوا هذا البيان المفكر محمد المبارك الذي قال: «إن صلة الإسلام بالعرب تاريخياً صلة لا تنفصم. ذلك أن الإسلام هو الذي جمع العرب لأول مرة في تاريخهم في إطار اجتماعي وسياسي واحد.

... **لقد أصبح الإسلام بالنسبة إلى العرب منبع حضارتهم وقوام تفكيرهم ومصدر ثقافتهم الأساسية، وموجِّه حضارتهم والمخطط لها، وغدا تاريخه هو تاريخهم**، فكان بين أمة العرب والإسلام ديناً ورسالة ونظاماً اقتران مستمر على الزمن، وتلازم لا يقبل الانفكاك، وأصبح كل انتقاص أو طعن في الإسلام أو عداوة له هجوماً عليهم وتحطيماً لكيانهم، وإشهار عداوة عليهم كذلك»[1].

المواطن العربي أيًا كان انتماؤه الديني يولد عربياً، والمسلم العربي عند البلوغ يصبح مكلفاً بالتزام الإسلام عقيدة وشريعة، لكنه وُلد في

---

(١) المبارك، أ. د. محمد، م. س، ص ٦٢.

حضانة عائلية أورثته الانتماء القومي للعروبة والانتماء للإسلام دون أن يكون مخيَّراً في ذلك. والحال نفسه بالنسبة للانتماء الوطني لبلد عربي معين، وهذا شأن يأتي ليردَّ على بعض المرتدين فكرياً بفعل مؤثرات شعوبية وافدة تناصب العداء العروبة والإسلام على حدٍّ سواء.

هذا واقع تحدث فيه كثيرون رغم تعدد مشاربهم الفكرية، منهم المستشار طارق البشري الذي قال: «نحن لا نختار العروبة، ولا نختار الإسلام، فهما مضروبان علينا، والقُطْرية مضروبة على كل من المصري والعراقي والمغربي، كلٌّ في دياره، كما أن الإنسان لا يختار أباه وأمه. ولكن اختيارنا يتأتّى من زاوية أخرى، هي كيف نضع الواحد من هذه العوامل إزاء الآخر، هل نقيمها في وضع التنائي أو في وضع التكامل. في هذا المجال نستطيع أن نعمل إرادتنا، وأن نحقق ما نصبو إليه من أهداف، واضعين في حسابنا الملاءمة التاريخية وتقدير الظروف الملابسة؛ أي: المجال التطبيقي لإعمال أية فكرة أو رابطة»[1].

روابط ثلاثة يتحدث عنها نص طارق البشري، هي: الرابطة الوطنية على مستوى كل قطر عربي، والرابطة القومية العربية على مستوى الأمة العربية، والرابطة الإسلامية العقدية الدينية. فالمصري أو اللبناني أو سواهما ينتسب لوطنه ومعه كل مواطنيه، أيًّا تكن انتماءاتهم الدينية أو العرقية أو السياسية، والعربي ينتمي إلى أمته وقوميته العربية الحضارية الجامعة لكل العرب والمستعربين، أيًّا تكن انتماءاتهم، والمسلم العربي ينتمي إلى الإسلام مع كل المسلمين في العالم.

---

(١) البشري، المستشار طارق، بين الإسلام والعروبة، القاهرة، دار الشروق، ط ١، سنة ١٤١٨هـ ـ ١٩٨٨م، ص٢٦.

وكذلك ينتسب المواطن العربي المسيحي إلى المسيحية عقيدة مع مسيحيين غير عرب، وما قرَّره طارق البشري هو أن هذه الانتماءات إنما هي واقع لا اختيار لأحد فيه، والواجب هو أن يكون العمل والفكر من أجل جلاء طبيعة العلاقات التكاملية بين هذه الأُطُر التي هي الوطنية والعروبة والدين (الإسلام)، فذلك يؤمن واقعاً مستقراً، ويمنع أي شكل من الوعي المشوش أو الملتبس.

وإذا كان الإسلام قد صاغ شخصية الأمة العربية، وهو مع دعوته وانتشاره فإنه احترم إرادة العرب في معتقدهم الديني، وقامت بين المسلمين والمسيحيين العرب علاقات قائمة على مواثيق وعهود تضمن الحياة الكريمة بين مكونات الشعب العربي، وقد حدَّد النصُّ القرآني فضاء العلاقات بين العرب المسلمين والعرب المسيحيين، بل وجميع أهل الكتاب، وأن أساس ذلك عقيدة التوحيد، وعلاقات المودة على الصعيد الاجتماعي. قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [آل عمران/ ٦٤].

وقال تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [المائدة/ ٨٢]. والحقيقة هي: «ولكن الإسلام لم يحتِّم على أهالي البلاد المفتوحة اعتناق الدين الجديد. ولذلك قد استعربت جماعات كبيرة من سكان البلاد المفتوحة دون أن تعتنق الديانة الإسلامية فتكوَّنت بذلك جماعات عربية غير مسلمة»[1].

---

(١) الحصري، ساطع، أبحاث مختارة في القومية العربية، ج ٢، بيروت، دار القدس، بدون تاريخ، ص١٢٨.

إن العروبة جامعة لأبنائها قومياً وحضارياً مسلمين ومسيحيين، وخصوصية العلاقة بين العروبة والإسلام في البعد الحضاري والإيماني العام لا تنتقص من مكانة أو كرامة العرب غير المسلمين. وممن تحدثوا عن هذه المسألة المفكر والأكاديمي محمد المبارك الذي قال: «إن وجود أقلية مسيحية تدين بالمسيحية لا تثلم هذه الوحدة، ولا تغيِّر من الحقيقة التاريخية التي تجعل من الإسلام عاملاً سياسياً في تكوين الأمة العربية الفكري والاجتماعي والنفسي، وفي الربط بين أبنائها في الحاضر والماضي، وذلك لسببين:

أولهما: أنَّ من حسن الحظ أن بين الإسلام والنصرانية صعيداً مشتركاً، فكلاهما في أصله دين سماوي ينبني على الإيمان بالله، ومسؤولية الإنسان أمامه، وبحياة أخرى وراء هذه الحياة.... وكلاهما يعظِّم المسيح عليه السلام ويقدِّسه على اختلاف في طريقة هذا التعظيم، وكلاهما يعظِّم أمه تعظيماً كبيراً، وكلا الدينين عاشا في إطار واحد من التسامح والأمن والسلام.

والسبب الثاني: هو أن المسيحيين من الوجهة القومية عاشوا في أجواء الفكر الإسلامي والثقافة والحضارة الإسلامية وتأثروا بذلك تأثراً كبيراً. ويمكن أن نضيف إلى هذين السببين سبباً **ثالثاً** مهماً، وهو أن الوعي العربي العام جعل المسيحيين العرب يشعرون كما يشعر المسلمون أن الإسلام تراثهم القومي، ومنبع ثقافتهم القومية، وحضارة أمتهم، وانطلقت ألسنة الكثيرين من المفكرين والكتّاب المسيحيين في التعبير عن هذا المعنى والاتجاه في هذا المنحى»[1].

---

(١) المبارك، أ. د. محمد، م. س، ص ٦٥، ٦٦.

إن العرب بمسلميهم ومسيحييهم ينتمون إلى وحدتهم في وطنهم قطرياً، وإلى عروبتهم قومياً، وهما معهم يفهمان دور الإسلام في تكوين الأمة تاريخياً.

وقد عبَّر أحسن تعبير عن هذه الوحدة المفكر عصمت سيف الدولة قائلاً: «إن الإسلام لا يدعو أهل الكتاب في المجتمع الواحد إلى التخلِّي عن دينهم والانتماء إليه... لا يدعوهم إليه بل يدعوهم معه ليعيشوا معاً على كلمة سواء... ليست كلمة المسلمين وليست كلمة أهل الكتاب، بل كلمة سواء بينهم جميعاً على ما هو مشترك ﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [آل عمران/ ٦٤]. أما فيما بينهم فلا سيطرة ولا هيمنة ولا استعلاء ولا قهر، لا من جانب المسلمين ولا من جانب أهل الكتاب»[(١)].

إنه العدل الذي هو سنَّة الله تعالى في خلقه، كما أن الخالق سبحانه قد أمر به، لأنه ضرورة لتقوم علاقات مستقرة مرضية بين الأفراد والمجموعات في رحاب الوطن والأمة، هذا العدل المؤسس لمجتمع وطني وقومي راسخ البنيان، إنما هو عدل يعتمد حقَّ المواطنة، ولا مكان فيه للعصبيات أو الأهواء.

لقد اتَّحدت المشاعر، وتآلفت القلوب في وحدة عربية حضارية جامعة، فاخر بها العربي المسيحي كما المسلم العربي. إنّ الأديب اللبناني مارون عبود (١٨٨٦م ـ ١٩٦٢م) اختار لابنه اسم محمد مارون عبود، وقال شعراً:

---

(١) سيف الدولة، د. عصمت، م. س، ص١٩.

عشت يا ابني، عُشت يا خير صبي	ولدته أمّة في رجب
فهتفنا واسمه محمد	أيها التاريخ لا تستغرب
خفف الدهشة واخشع إن رأيـ	ـت ابن مارون سميًّا للنبي
أمّه ما ولدته مسلماً	أو مسيحياً ولكن عربي
والنبي القرشي المصطفى	آية الشرق وفخر العرب

هذه النفحة الشاعرية هي واحدة من النفحات، وأساليب التعبير عما يجول في أذهان الأدباء العرب المسيحيين تجاه العروبة والإسلام، وهذا يؤكد ما ذهب إليه المفكران محمد المبارك وعصمت سيف الدولة.

إن العروبة هوية، وهي الأساس في الثقافة للأمة، وهذه العروبة لا مكان فيها للعنصرية أو الاستعلاء بل هي إطار جامع للعرب، وهي تتسم بالانفتاح على الأمم والشعوب استناداً إلى التعارف لا التصادم، التزاماً بقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ﴾ [الحجرات/ ١٣].

وقد تألقت الشخصية العربية مع التطور المعرفي والحضاري، ولم يتأثر ذلك بالواقع السياسي، فقد بقي المسار الوحدوي ثقافياً في خطٍّ تصاعدي، سواء أكانت هناك دولة خلافة أو إمارات وأقاليم، أو توزعت الأمة في أقطار لها مؤسسات دستورية في دول كما الحال في الواقع الحالي.

قال المؤرخ عبد العزيز الدوري في هذا الموضوع: «هكذا تحدّد مفهوم العروبة على أساس ثقافي لا عنصريّ، واكتسب دينامية تتحدّى التجزئة، سياسية أو جغرافية، ومع إن إطار الثقافة العربية وُضع في

صـدر الإسـلام، إلا أن فترة تكويـن الثقافة العربية الإسـلامية تجاوزت فترة الوحدة السياسية لبلاد الخلافة. وهذا يعني أن تكوين الأمة العربية في الإطار اللغوي الثقافي لـم يقترن إلا جزئياً بفترة وحدتها السياسية».[1]

إن وحدة الأمـة العربية بوصفهـا حقيقة لها مقومـات ومكوِّنات لـم تعد بحاجة إلـى براهين لإثبات حقيقة وجودهـا، ولا ينكر حقيقتها إلا جاهـل أو صاحب هوى، أو مأجـور لجهات تريد ضـرب هوية الأمة. هذا ما ذهـب إليه جمال عبد الناصـر عندما قال: «إن الأمـة العربية لـم تعد في حاجة إلى أن تثبت حقيقة الوحدة بين شعوبها.

لقـد تجـاوزت الأمـة هـذه المرحلـة، وأصبحـت حقيقـة الوجود العربي ذاته.

يكفي أن الأمة العربيـة تملك وحدة اللغة التـي تصنع وحدة الفكر والعقل، ويكفي أن الأمة العربية تملك وحدة التاريخ التي تصنع وحدة الضمير والوجدان.

ويكفـي أن الأمـة العربيـة تملـك وحـدة الأمـل التي تصنـع وحدة المستقبل والمصير.

إن الذين يحاولون طعن فكرة الوحدة العربية من أساسـها مستدلِّين بقيـام خلافـات بيـن الحكومـات العربيـة، ينظـرون إلـى الأمـور نظرة سـطحية. إن مجرد وجـود هذه الخلافـات هو في حدٍّ ذاتـه دليل على قيام الوحدة»[2].

---

(١) الدوري، أ.د. عبد العزيز، م.س.، ص ١١٣.

(٢) عبـد الناصـر، الرئيـس جمـال، الميثـاق، بيـروت، دار المسـيرة، بـدون تاريـخ، ص ١٩٥.

إن الأمة العربية تتمتع بمقومات وحدتها التي حققت لها الائتلاف بين أهلها، وقد ظهر ذلك ولا يزال في محطات وأحداث كثيرة أتت تؤكد حقيقة الأمة وجوداً وواقعاً، وما قاله جمال عبد الناصر، قال به آخرون منهم المفكر محمد المبارك، وما قاله هو: «ويمكننا بعد أن استعرضنا عوامل اللغة والثقافة والتاريخ والمعتقدات أن نلاحظ أن هذه العوامل المعنوية كلها تؤدي إلى نتيجة هامة جداً في تكوين الأمة، وهي إيجاد جوٍّ من الانسجام الفكري والعاطفي بين أفراد الأمة من التّشابه في التفكير والسلوك والاتجاه في الحياة، وهذا الانسجام والتّشابه المؤدي إلى التآلف والتعاون هو الأساس في تكوين كل أمة من الأمم وفي ارتباط المنتمين إليها بعضهم ببعض»[1].

إن مقومات شخصية الأمة العربية، وعناصر تكوينها التاريخي، جعلوا منها أمة واحدة اجتماعياً وحضارياً، وكل من وُلِد وترعرع في كنف هذه الأمة بين المحيط والخليج هو عربي أصالة، وكل من استعرب لساناً، وثقافة، وقيماً، وشعوراً، بات عربياً، وإذا حصل أن تنكَّر أحد لانتمائه لعروبته فإن السبب يكون إمّا الجهل، وإما الارتباط بحالة خارجية جنَّدته لمهمة الانقلاب والتآمر على أمته.

وقد تحدث في هذا الباب المفكر القومي ساطع الحصري قائلاً: «إن كل شعب يتكلم العربية هو شعب عربي. وكلٌّ من ينتسب إلى شعب من هذه الشعوب العربية هو عربي،... وأما إذا لم يعرف هو ذلك... ولم يعتزّ بالعروبة... فعلينا أن نبحث عن الأسباب التي تحمله على الوقوف هذا الموقف. فقد يكون ذلك ناتجاً عن الجهل، فعلينا

---

(١) المبارك، أ.د. محمد، م.س، ص ٦٠.

أن نعلِّمه الحقيقة. وقد يكون ناشئاً عن الغفلة والانخداع، فعلينا أن نوقظه ونهديه سواء السبيل»[1].

يتجدد السؤال هنا: ما سبب الغفلة؟ ولِمَ الانخداع؟

والجواب هو أن شخصيات من أبناء الأمة العربية، أو من المسلمين كانوا منفعلين، فطرحوا أفكاراً بداعٍ من ردة فعل على فكرة للآخرين، أو سلوك قاموا به فعالجوا الخطأ بالخطأ، أو أن قبيلاً كان فهمه خاطئاً أو وعيه للأمور ملتبساً فسقط في مهاوي الجهل والغفلة، وتمكن الخصوم والأعداء من خداعه، وإذا به يهرف بما لا يعرف، وعندما يكون هذا الشخص ممن كانت له نجومية صنعتها ظروف أو جهات، يجد المتابع أن مجموعات من أبناء الأمة تأخذ بما ذهب إليه انطلاقاً من شعور التقدير الذي تحمله له، دون أن تمحِّص الفكرة، ومقدار الصواب فيها.

وعمليات الخداع والتشويش الفكري يستخدم صانعوها حالات التضليل في استخدام المصطلحات، أو حالات من بتر الأفكار والنصوص من سياقها كي يسوِّغوا بها مواقفهم، أو يخلطون المفردات، ويعمدون إلى تشويه دلالة المعنى فيها، أو يحمِّلون بعض النصوص من القرآن الكريم والسُّنَّة النبوية الشريفة معاني بعيدة من حكمها ومفهومها، وهذا ما سمّاه العلماء: (ليُّ أعناق النصوص)، كما الحال في مصطلح الأمة أو القومية أو غيرهما.

هذا الانخداع ومعه الغفلة سبّبا مواقف فكرية دفعت بعض

---

(١) الحصري، ساطع، م. س، ج ١، ص ٩٥.

المنفعلين إلى دعوات انسلاخ عن الانتماء الوطني والقومي أحدثت شرخاً كبيراً في صفوف أبناء الأمة، واستهلكت في فضائها طاقات وجهود ذهبت وتذهب سدى، ولا تزال المشكلة قائمة، والحاجة ملحة لوضع حدٍّ لهذا اللون الفكري الشخصاني الفهم، الذي يودُّ بعضهم تعميمه، عن جهل أو لارتباط أو ولاء لا يصبُّ في مصلحة الأمة.

هذا الموقف الملتزم بالوطنية وبالوحدة العربية الذي تمَّ طرحه رداً على الشعوبيين كان قد طرحه جمال الدين الأفغاني حين واجه دعوة السلطنة العثمانية إلى التتريك، وكان حرياً بالترك أن يستعربوا. إن قول جمال الدين الأفغاني هو: «فكيف يعقل تتريك العرب، وقد تبارت الأعاجم في الاستعراب، وتسابقت؛ وكان اللسان العربي لغير المسلمين ولم يزل، من أعزِّ الجامعات وأكبر المفاخر؟!

فالأمة العربية هي عرب قبل كل دين ومذهب، وهذا الأمر من الوضوح والظهور للعيان، ما لا يحتاج معه إلى دليل أو برهان»[1].

إن العرب لهم وجود سابق وعريق سواء منهم العرب العاربة، أو العرب المستعربة، ولكن الإسلام رسَّخ نسيج الأمة من محيطها إلى خليجها، وبفضله تبلورت شخصيتها القومية، فحملت الإسلام دعوة إلى العالمين، دون أن تتقوقع الأمة حضارياً، وحفظت المنتمين إلى العروبة مسلمين ومسيحيين.

وإذا كان السؤال: لماذا الانقسام والدويلات؟ يكون الجواب: إن

---

(١) الأفغاني، جمال الدين، الأعمال الكاملة، ج ٢، تحقيق ودراسة د. محمد عمارة، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط ١، سنة ١٩٨١م، ص١٦.

حالات من الفرقة الناتجة من عصبيات وأهواء سلطوية أحدثت في التاريخ الماضي ما كان من تفتيت لأمة العرب، وكان بعد ذلك الاستعمار الغربي الحديث الذي اعتمد سياسة قاعدتها: (فرِّق تسد)، فكان من نتيجة ذلك ما هو قائم حالياً من كيانات دستورية قطرية تشكلت في وحدات وطنية، لكن ذلك لا يقلل من دور العروبة في الحفاظ على الشخصية الوحدوية الجامعة.

وقد طرح الشيخ محمد البشير الإبراهيمي ما يبيِّن دور الخلاف والاستعمار في التفتيت والتجزئة؛ فقال: «هذه العروبة الأصيلة العريقة في هذا الوطن، هي التي صيَّرته وطناً واحداً، لم تفرِّقه إلا السياسة، سياسة الخلاف في عصوره الوسطى، وسياسة الاستعمار في عهده الأخير، وهذه العروبة هي مِساكه على كثرة المفرّقات، وهي ملاكه على وفرة العوامل الهادمة، وهي رباطه الذي لا ينفصم، ببقية أجزاء العروبة في الشرق، وهي السبب في كل ما يأخذ من تلك الأجزاء وما يعطيها، فينصرها في الملمّات، ويتقاضاها النصر في المهمات، فالعالم العربي بهذه العروبة المكينة، كالجسد الواحد»[1]. إنَّ سُنَّة الله تعالى هي توزيع الناس في أمم وشعوب، ولكل أمة سمات وخصائص مجتمعية، وهويات ثقافية تميِّزها من بعضها. وإذا كان الكلام هو بشأن تحديد مقومات الشخصية العربية فإن المفيد أن يتمَّ عرض التحديد الآتي:

«العروبة هي رابطة الانتماء الحضاري والسياسي والاجتماعي إلى

---

(١) الإبراهيمي، الشيخ محمد البشير، عيون البصائر، ج ٢، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، سنة ١٩٧١، ص٤٧٨.

الأمـة العربيـة. والأمـة العربية تتميَّـز عن غيرهـا من الأمـم بمميّزات خاصة هي:

١ ـ اللغـة الواحدة، وهـي اللغة العربية الفصحى التي تشـكل عماد التواصل بين الناطقين بها وحجر الأساس للثقافة العربية الواحدة.

٢ ـ أرضهـا الواحـدة المشـتركة الممتـدة مـن الخليـج العربي إلى المحيط الأطلسـي، ومن جبال زغاروس وطوروس شـمالاً إلى هضبة الحبشة جنوباً.

٣ ـ تاريخهـا الواحد الذي يرصد ويسـجل أدوار الحياة المشـتركة لأجيال متعاقبة منذ فجر التاريخ وحتى يومنا الراهن.

٤ ـ تقاليدها وعاداتها وأعرافها الاجتماعية الواحدة.

٥ ـ آلامهـا الواحـدة وآمالهـا الموحـدة التـي يعبَّـر عنهـا بوحـدة المصلحة والمصير.

وحينما نقول عن إنسـان: إنه عربي؛ فإن المقصود بذلك أنه إنسـان لـه كل الصفات الخمسـة التـي تحدثنا عنهـا، بغض النظر عـن أصوله العرقيـة، لأن العروبة ليسـت مفهوماً عنصريـاً، وبغض النظـر عن دينه أو مذهبه لأن العروبة ليست مفهوماً طائفياً»[1].

إذا كانـت هناك خصوصيـة في العلاقـة بين العروبة والإسـلام فإن هذه الخصوصية ليسـت ضد العربي غير المسـلم، لأن الإسـلام خاتم الرسـالات جاء مصدقاً لما بيـن يديه، مطالباً أهل الكتـاب أن يحكموا

---

(١) طرابلسـي، المهندس سـمير، دراسـات فـي العروبة والإسـلام، بيـروت، المركز الوطني للدراسات والنشر، ط ١، سنة ١٩٩٨، ص ١٨.

بما في كتابهم، ولم يصادر حقَّهم في حياة كريمة في مجتمعهم الوطني والقومي مع مواطنيهم المسلمين. والعروبة ليست رابطة لجنس أو عرق أو لمنتمين لدين أو مذهب تستعلي بانتمائها على الآخرين، وإنما العروبة رابطة جامعة لكل من كان عربي الأصل، أو من انتمى ملتزماً سمات الشخصية العربية. وإذا أحبَّ أحدٌ أن يقول: ما هي العروبة؟ فالجواب هو: «إن العروبة رابطة حضارية قوامها اللغة والثقافة، والأرض المشتركة، والمصالح الواحدة. والعروبة ترفض العنصرية والطائفية، وتعتبرهما تمزيقاً لوحدة النسيج العربي، والعروبة لا تفرِّق في الانتماء إليها بين مسلم ومسيحي إلا بمقدار التمسُّك بروابطها والعمل وفق مصالحها»[1].

وقد أشار جمال عبد الناصر في خطابه بتاريخ ٥/٢/١٩٥٨م بمناسبة إعلان الوحدة بين مصر وسوريا، إلى هذه المفاهيم، وهذه الروابط الراسخة بين الأمة العربية، وسعي أهلها الدائم إلى الوحدة لأنها قوة، والوحدة تحقق التحرر والتقدم. قال في الخطاب المشار إليه: «لقد كان الكفاح من أجل الوحدة هو بنفسه الكفاح من أجل القوة.. ومن أجل الحياة، ولقد كان التلازم بين القوة والوحدة أبرز معالم تاريخ أمتنا.... ولقد كان أسلوب السعي إلى الوحدة يتشكل بالعصر الذي تعيش فيه كل محاولة لتحقيقها.... لقد اتحدت المنطقة بحكم السلاح يوم كان السلاح هو وسيلة التعبير في الطفولة الأولى للبشرية، واتحدت المنطقة بيقين النبوات حين بدأت رسالات السماء تنزل إلى الأرض لتهدي الناس، واتحدت المنطقة بسلطان العقيدة حين

---

(١) طرابلسي، المهندس سمير، م. س، ص ٣٣.

اندفعت رايات الإسلام تحمل رسالة السماء الجديدة، وتؤكد ما سبقها من رسالات، وتقول كلمة الله الأخيرة في دعوة عباده إلى الحقّ. واتحدت المنطقة بتفاعل عناصر مختلفة في أمة عربية واحدة، واتحدت المنطقة باللغة يوم جرت العربية وحدها على كل لسان، واتحدت المنطقة تحت دافع السلامة المشتركة يوم واجهت استعمار أوروبا يتقدم منها محاولاً أن يرفع راية الصليب ليستر مطامعه وراء قناع من المسيحية، **وكان معنى الوحدة قاطعاً في دلالته حين اشتركت المسيحية في الشرق في مقاومة الصليبيين[1] جنباً إلى جنب مع جحافل الإسلام»**.

لقد تجسدت وحدة الأمة في محطات كثيرة، وفي العصر الحديث كان اللقاء حول قضية العرب الكبرى فلسطين منذ برز الخطر الاستعماري الصهيوني الاستيطاني الإحلالي في أوائل القرن العشرين للميلاد، كما أن المتابع الموضوعي يلاحظ المشاعر القومية تتأجج حين ينتصر فريق رياضي عربي في ملعب وصولاً إلى أكبر الانتصارات. لذلك عمل الاستعمار ولا يزال بكل أشكاله لمحاربة الوحدة لأنه أيقن بأن الوحدة قوة ومنعة، وهذه المحاربة بدأت في رسم الخريطة الاستعمارية بعد الحرب العالمية الأولى فيما سُمّي (سايكس ـ بيكو)، حيث تمَّ تفتيت الأمة العربية إلى ٢٢ دولة، واليوم

(١) إن الغزو الأوروبي في القرن الحادي عشر للميلاد الذي رفع شارة الصليب سماه مؤرخو تلك الحقبة من العرب: حرب الفرنجة، لأن الغزو بدأ بعدوان على الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية من إسطمبول إلى القدس، وقد وقف العرب المسيحيون مقاتلين، وكان من أبرز ذلك أن قاد المسيحي عيسى العوّام ميمنة جيش صلاح الدين يوم وقعة حطين عام ١١٨٧م.

تموّل مشـروعات فتنوية باسـم الطائفـة أو المذهب أو العـرق لتفتيت المفتت، وهذا المشروع الاستعماري الصهيوأمريكي هو الذي وضعوا له عنواناً هو: الشرق الأوسط الجديد.

ونغني البحث بذكر هذا الموقف للمؤرخ الجزائري الوطني عثمان سـعدي الذي أطلق صيحـة تحتاج من كل عربي أن يصغـي إليها، وأن يعمـل من أجل إنجازها وتحقيقها. وصيحتـه: «إن القومية العربية ـ بلا غنائية ـ تحقيق وحدة الأمـة العربية، تحقيق الولايات العربية المتحدة، فـي امتداد جغرافي عرضه سـبعة آلاف كيلومتر، مـن رأس أبيض على سـاحل المحيـط الأطلسـي بموريتانيا، وحتـى رأس حدّ على سـاحل عُمان بالمحيط الهندي شرقاً، ومساحته أحد عشر مليون كيلومتر مربع (الصحيـح أن مسـاحة الأرض العربيـة ١٤ مليـون كيلومتـر مربـع)، وبسـواحل طولها خمسـة عشـر ألف كيلومتر، تقع على محيطين هما: المحيـط الهنـدي، والمحيط الأطلسـي، وعلـى أربعة بحـار دافئة هي: البحـر المتوسـط، والبحـر الأحمر، وبحـر عُمـان، والخليـج العربي. وبإمكانيـات اقتصادية خياليـة، تضمُّ ثلاثة من أطول سـتة أنهر بالعالـم. (نهر النيل ـ نهر الفرات ـ نهر دجلة).

وإذا لـم تتحقق هـذه الوحدة، فإننا سـنبقى أقزامـاً تحت أقدام الإمبرياليـة والصهيونيـة، والـدول العظمى، لأننا نعيـش في عصر العمالقة: عصر العملاق الأمريكـي، والعملاق الياباني، والعملاق الأوروبـي، الـذي يجمـع شـتاته الآن[1]، والعمـلاق الصينـي،

---

(١) كتاب المؤرخ عثمان سعدي صدر في مرحلة التحضير للاتحاد الأوروبي ولذلك كانت هذه الإشارة.

والعملاق الهندي الناشئ. [سقط منه العملاق الروسي لأنه عندما صاغ كتاب كان الاتحاد السوفياتي قد انهار، ولم يكن الاتحاد الروسي قد برز].

ويا ويح العرب إن بقوا اثنين وعشرون دولة أو اثنتين وعشرين أمَّة، فإنهم سيستمرون مجرد بئر خام للنفط، ومجرد سلسلة طويلة من أرقام حسابات جارية ميّتة في مصارف الدول الرأسمالية، ينطبق عليهم قول شاعرهم:

كالعيس في البيداء تموت من الظَّما والماء فوق ظهورها محمول»[1]

إن التمزيق الاستعماري للأمة العربية كان عامل ضعف، وإن هذا التفتيت إلى دول وكيانات، ووضع حدود وحواجز ولَّد عصبيات قطرية، والمعلوم أن الأمن العربي لا يتحقق على أساس التجزئة، كما أن التقدم لا يتحقق على أساس التجزئة، بل الصحيح أن السبيل إلى التقدم والتحرر والاستقرار إنما هو المنهج الوحدوي الذي يحقق المنعة والقوة والاقتدار من خلال الوحدة.

قال الداعية محمد الغزالي بهذا الشأن: «الأجزاء التي يتكون منها الوطن يكمِّل بعضها بعضاً، وتكفل له كل حاجاته، كأنها جميعاً ملامح وجه ما تَجْمل قسماته إلا باستوائها، أو مشاعر جسم وأعضاؤه، فما يستطيع السعي ولا الحسّ إلا بتعاونها وائتلافها.

وعندما قطَّع الاستعمار هذه الأمة أمماً؛ فرَّق بين اليد وأختها، فما تستطيع أحدهما أن تصفِّق، وباعد بين السمع والبصر، وبينهما

---

(١) سعدي، عثمان، م.س، ص ١٤٩.

جميعاً والقلب فكان هذا التمزيق إبطالاً لكل مصلحة مرتقبة»[1].

وإذا كان الاستعمار قد أدرك أن قوة العرب في وحدتهم، فإن الغريب أن يغيب الأمر من أذهان بعضهم فنجده يخاصم العروبة بحجة الانتماء إلى الإسلام أو إلى المسيحية، وهذا يضعف الجميع بموقفه هذا.

لقد لفت محمد الغزالي إلى هذا قائلاً: «قلت في كتابي (كفاح دين): وإعزاز العروبة من شعائر الإسلام).

روى الترمذي عن سلمان الفارسي قال: قال لي رسول الله تعالى ﷺ: (**يا سلمان لا تبغضني فتفارق دينك**). قلت: يا رسول الله، كيف أبغضك وبك هدانا الله؟ قال: (**تبغض العرب فتبغضني**).

وروى الترمذي عن عثمان بن عفان قال: قال رسول الله تعالى ﷺ: (**من غش العرب لم يدخل في شفاعتي ولم تنله مودتي**).

فما من مسلم إلا وله من دينه دوافع تجعله ـ ولو كان هندياً أو فارسياً أو تركياً ـ يحب العروبة ويحمي بيضتها ويصون حماها.

والعربي المسيحي، لن يكره جنسه ما دام مستقيماً مع طبيعته.

بل هو لن يكره محمداً صلوات الله تعالى عليه وسلامه أو يضيق بأتباعه.

إنه يقرّ بعبقريته إن لم يؤمن برسالته.

وهو يتغنّى بأمجاد قومه ودعائم حضارتهم وإن لم يشركهم في صلاة، أو يصدِّقهم في اعتقاد»[2].

هذه هي العروبة؛ إنها إطار مجتمعي حضاري جامع لكل

---

(١) الغزالي، الشيخ محمد، م. س، ص١١٩.

(٢) الغزالي، الشيخ محمد، م. س، ص ١٣٠.

المكونـات، وأمجـاد الأمـة أمجاد يعتـز بها المسـيحي كما المسـلم، واختلاف العقيـدة أو العبادة لا يلغي الوحدة الوطنيـة والقومية، وهذا مـا أكـده المرحـوم محمـد الغزالي، فهـل وعـى شـعوبيو العصر هذه المفاهيـم؟ أم أنَّ الجهل بالحقيقـة مع الارتباط بمشـاريع تآمرية على الأمة أعمى بصائرهم؟

أمَّا مثيرو النعـرات القطرية الفئوية متذرعين بمخـاوف من الذوبان في إطـار الوحدة العربية، فإن الردَّ عليهم مـن العروبيين هو أن الدعوة للوحدة ليسـت قائمة على الإكراه، بل أساسها نشر ثقافة الوحدة لخَلق الاقتنـاع، هـذا مع مرونـة في الصيغـة، وأن تقـوم الوحدة علـى قواعد الديمقراطية السليمة.

إنَّ وضعـاً جديداً علـى المسـتويين الوطني القطـري والقومي قد انتجتـه خارطـة سـايكس ـ بيكـو، وبـات هنـاك دول فيهـا مواطنـة ودسـاتير، ويحتـاج العمـل الوحدوي إلـى مراعاتها، وإلـى التصرف بأسـلوب غير صادم، وهنـا يكون مسـار الوحدة محتاجـاً إلى ابتكار صيـغ متنوعة؛ أي أن الوحدة الاندماجية على أسـلوب بسـمارك في ألمانيا لم تعد الصيغة المطلوبة.

وهناك الاتحـاد أو التكامل بين الكيانات الوطنية فهو أسـلوب أكثر جدوى وقبولاً. ويرى في ذلك كمال شـاتيلا (رئيس المؤتمر الشـعبي اللبنانـي): «يجـب أن لا يوضع شـرط الاندمـاج، فإذا ما قبل الشـعب العربـي الاندماج فليكـن، أمَّا إذا لم يقبـل فعلينا أن نراعـي ذلك، وأن لا نفرض الاندماج بالقوة، لذلك يكون الحديث على أن الوحدة يجب أن تكـون اندماجية ليـس بمكانه، لأننا في هذه الحالـة نصعِّب الأمور،

فالوحدة تكون بمضمون اتحادي تكاملي... أصبح هناك شبه وطنية للأقطار سواء بإرادتها أم بغير إرادتها، علينا أن نكون واقعيين، وأن نعتبر الوطنية جسراً للقومية، وليست القومية نفياً للوطنية»[1].

إن واقعنا العربي المعاصر ونحن في السنوات الأولى من القرن الحادي والعشرين للميلاد يستدعي التفكير بالوحدة من منطلقات الواقع المعيوش ومعطياته، وهذا ما يقود إلى التفكير بصيغ اتحادية وتكاملية بين المجموعات العربية، المؤطّرة دستورياً في أقطار بات لها خصوصيات سياسية في الحكم والهيكليات الإدارية، والمؤسسات بنوعيها الحكومي والأهلي، وفي الاقتصاد وسواه، لذلك يكون الاتجاه إلى المراد في الوحدة العربية بخطى مدروسة تراعي ما آلت إليه الأحوال في واقع الأمة، إنما هو ضرورة كي يحقق الوحدويون مقاصدهم لأن أية صيغة تقوم على القسرية ستقود إلى ما لا تحمد عقباه، وتصبح تنفيراً من الوحدة، ولا تحقق الألفة المطلوبة في فضاء الأمة بين كل مكوناتها.

إن دولة الوحدة العربية التي تقوم على الصيغة التكاملية الاتحادية لا الدمج والقسرية، هي دولة تنجز الحلم، وتحقق الآمال العراض لأبناء الأمة، وتتحقق معها قوة تدفع كل الأخطار، كما أنها تحرر ما هو محتل، وتنجز التقدم المنشود.

---

(١) شاتيلا، كمال، العروبة في المواجهة، القاهرة، أوراق عربية للنشر، سنة ٢٠١٠، ص ١٢١.

المصادر والمراجع

١ ـ الإبراهيمي، الشيخ محمد البشير، عيون البصائر، ج ٢، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، سنة ١٩٧١م.

٢ ـ الأصفهاني، أبو نعيم، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، بيروت، دار الكتب العلمية، ط ٢، سنة ١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٢م.

٣ ـ الأفغاني، جمال الدين، الأعمال الكاملة، ج ٢، تحقيق ودراسة د. محمد عمارة، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط ١، سنة ١٩٨١م.

٤ ـ الألوسي، محمود شكري، بلوغ الأرب من معرفة أحوال العرب، شرح وضبط محمد بهجة الأثري، بيروت، دار الكتب العلمية، ط ١، سنة ٢٠٠٩م.

٥ ـ ابن الأثير، عز الدين، الكامل في التاريخ، م ١، بيروت، دار صدر، ط ٦، سنة ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٥م.

٦ ـ اِبن أيوب، أبو الفداء إسماعيل، تاريخ أبي الفداء: المسمى: المختصر في أخبار البشر، ج ١، علَّق عليه ووضع حواشيه محمود ديوب، بيروت، دار الكتب العلمية، ط ١، سنة ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٧م.

٧ ـ ابن باديس، الشيخ عبد الحميد، حياته وآثاره، جمع ودراسة د. عمار الطالبي، الجزائر، الشركة الوطنية الجزائرية، ط ٣، سنة ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٧م.

٨ ـ ابن تيمية، اقتضاء الصراط المستقيم في مخالفة أصحاب الجحيم، القاهرة، دار الحديث بالأزهر، سنة ١٩٧٧م.

٩ ـ ابن خلَّكان، أبو العباس، وفيات الأعيان، تحقيق د. إحسان عباس، بيروت، دار صادر، سنة ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٤م.

١٠ ـ ابن عساكر، تاريخ دمشق، م ٢٤، بيروت، دار الفكر، سنة ١٩٩٥م.

١١ ـ ابن عطية الأندلسي، عبد الحق بن غالب، المحرر الوجيز، الرباط، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، سنة ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٢م.

١٢ ـ ابن كثير، أبو الفداء الحافظ، تفسير القرآن العظيم، بيروت، دار الكتب العلمية، ط ١، سنة ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٤م.

١٣ ـ البشري، المستشار طارق، بين الإسلام والعروبة، القاهرة، دار الشروق، ط ١، سنة ١٤١٨هـ ـ ١٩٨٨م.

١٤ ـ البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين، شعب الإيمان، تحقيق محمد السعيد بسيوني، بيروت دار الكتب العلمية، ط ١، سنة ١٤١٠هـ.

١٥ ـ الثعالبي، أبو منصور، فقه اللغة وسرّ العربية، تحقيق ومراجعة د. فائز محمد، ود. إميل يعقوب، بيروت، دار الكتاب العربي، ط ١، سنة ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٣م.

١٦ ـ الثعالبي، الشيخ سيدي عبد الرحمن، الجواهر الحسان في تفسير القرآن، تحقيق د. عمار الطالبي، الجزائر، وزارة الثقافة، سنة ٢٠٠٧م.

١٧ ـ الحاكم النيسابوري، المستدرك على الصحيحين، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، بيروت، دار الكتب العلمية، ط ١، سنة ١٤١١هـ ـ ١٩٩٠م.

١٨ ـ الحصري، ساطع، أبحاث مختارة في القومية العربية، ج ١، وج ٢، بيروت، دار القدس، بدون تاريخ.

١٩ ـ الدوري، أ.د. عزت، التكوين التاريخي للأمة العربية، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ط ٣، سنة ١٩٨٦م.

٢٠ ـ الزبيدي، السيد محمد مرتضى بن محمد الحسين، تاج العروس من جواهر القاموس، بيروت، دار الكتب العلمية، ط ٢، سنة ١٤٣٣هـ ـ ٢٠١٢م.

٢١ ـ الزرقاني، محمد بن عبد الباقي، مختصر المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة، تحقيق د. محمد بن لطفي الصباغ، الرياض، مكتب التربية العربي لدول الخليج، سنة ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٥م.

٢٢ ـ زيدان، جرجي، العرب قبل الإسلام، مراجعة وتعليق د. حسين مؤنس، القاهرة، دار الهلال، بدون تاريخ.

٢٣ ـ سعدي، عثمان، الأمازيغ (البربر) عرب عاربة، الجزائر، سنة ١٩٩٦م.

٢٤ ـ سوسة، د. أحمد، العرب واليهود في التاريخ، دمشق، العربي للإعلان والنشر، ط ٧، بدون تاريخ.

٢٥ ـ السويد، أبو الفوز محمد أمين، سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب، مصر، المكتبة التجارية الكبرى، بدون تاريخ.

٢٦ ـ سيف الدولة، د. عصمت، عن العروبة والإسلام، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ط ١، سنة ١٩٨٦م.

٢٧ ـ السيوطي، جلال الدين، الإتقان في علوم القرآن، بيروت، دار الندوة الجديدة، بدون تاريخ.

٢٨ ـ شاتيلا، كمال، العروبة في المواجهة، القاهرة، أوراق عربية للنشر، سنة ٢٠١٠م.

٢٩ ـ الشافعي، الإمام محمد بن إدريس، الرسالة، تحقيق د. عبد الفتاح

كبارة، بيروت، دار النفائس، ط ١، سنة ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٩م.

٣٠ ـ شعراء النصارى العرب والإسلام، إعداد ماجد الحكواتي، الكويت، منشورات مؤسسة البابطين، عام ٢٠٠٦م.

٣١ ـ الطبرسي، الفضل بن الحسن، جوامع الجامع، بيروت، دار الأضواء، ط ١، سنة ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م.

٣٢ ـ طرابلسي، المهندس سمير، دراسات في العروبة والإسلام، بيروت، المركز الوطني للدراسات، ط ١، سنة ١٩٨٨م.

٣٣ ـ عبد الناصر، جمال، الميثاق، بيروت، دار المسيرة، بدون تاريخ.

٣٤ ـ العجلوني، إسماعيل بن محمد، كشف الخفاء ومزيل الإلباس، تصحيح وتعليق أحمد القلّاش، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط ٤، سنة ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م.

٣٥ ـ علي، د. جواد، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، بغداد، منشورات جامعة بغداد، ط ٢، سنة ١٤١٣هـ ـ ١٩٩١م.

٣٦ ـ الغزالي، الشيخ محمد، حقيقة القومية العربية، القاهرة، دار نهضة مصر، سنة ١٩٩٨م.

٣٧ ـ الغنيمي، د. عبد الفتاح مقلد، عروبة مصر قبل الإسلام، القاهرة، شركة دار الإشعاع للطباعة، سنة ١٤١٢هـ ـ ١٩٩٣م.

٣٨ ـ القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد، الجامع لأحكام القرآن،

رقم: 589 – 13